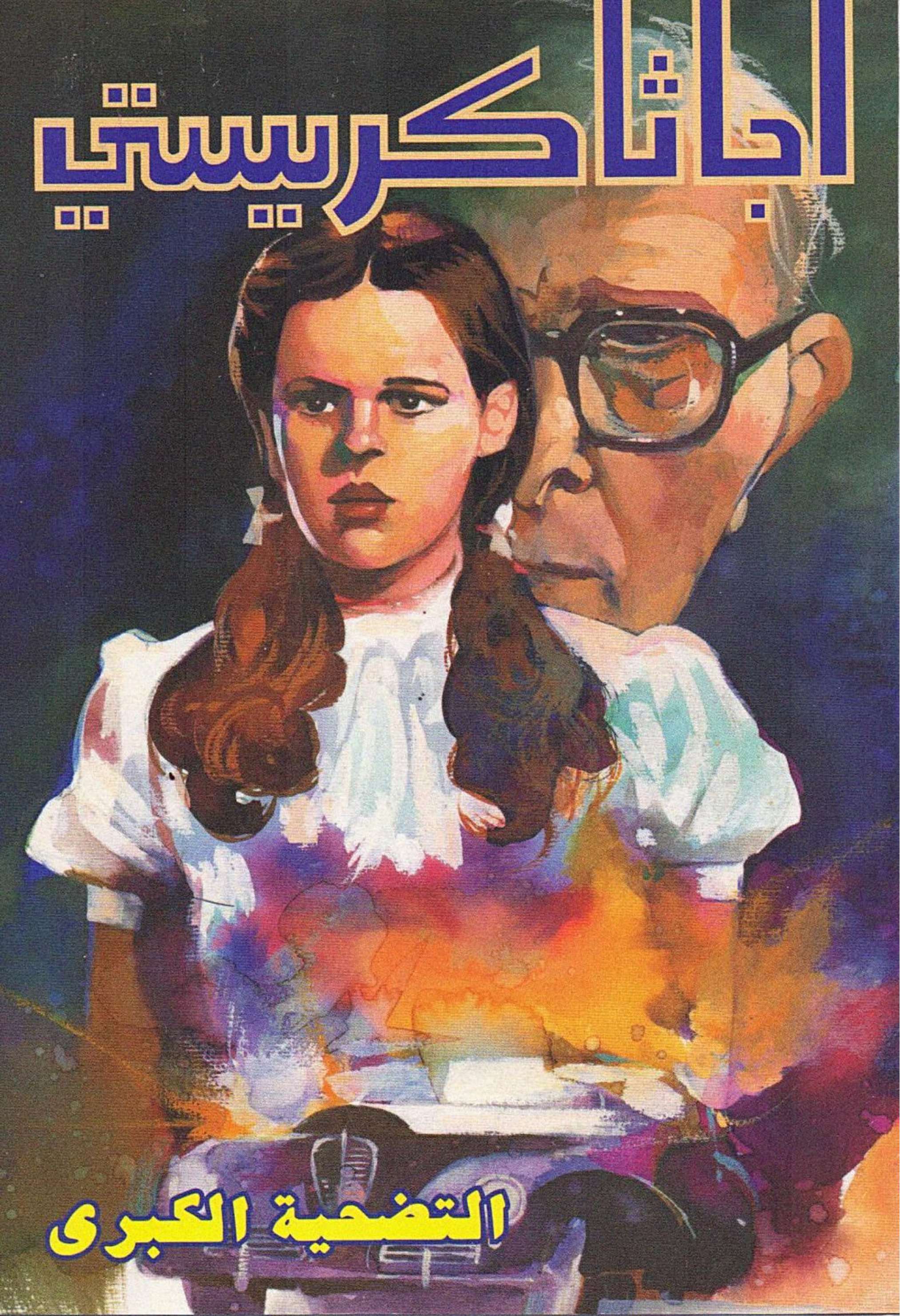

اجاثا كريستي
التضحية الكبرى

التضحية الكبرى

- 3 -

بوناورد الأسطه

يقدّم

الرواية المعرَّبة

التضحية الكبرى

(11)

تأليف الكاتبة والأديبة العالمية

أجاثا كريستي

تعريب الأديب الراحل

عمر عبد العزيز أمين

الناشر

دار ميوزيك

للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

ص.ب 374 جونيه – لبنان

تلفون 666 212 9 961 00 فاكس 665 212 9 961 00

www.inter-press.org Email:info@inter-press.org

وكلاء التوزيع

المركز الدولي للصحافة – دار البشير – دار إي بي سي

الاسم الأصلي للرواية

Crooked House

(1949)

الغلاف بريشة الفنان

عبد العال

- 1 -

قابلتُ "**صوفيا ليونيدس**" لأول مرة في "**مصر**" ، قبيل الحرب العالمية .. كانت تشغل منصبا مهمًّا في أحد المكاتب التابعة لوزارة الخارجية البريطانية وكانت صلتي بها في البداية مجرد صلة عمل ، ولكنني ما لبثت بعد فترة قصيرة أن تبينت ما لها من مواهب وصفات مميزة أهَّلتها للاضطلاع بمسؤوليات ذلك المنصب المهم ، على الرغم من أنها لم تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها .

كانت على قدر كبير من الجمال والذكاء ، وكان يطيب لي حديثُها فتوثقت بيننا أواصر الصداقة وصرنا نخرج معا لتناول العشاء .. والرقص في بعض الأحيان .

واستمرت هذه الصداقة إلى أن وضعت الحرب أوزارها ، وصدر الأمر بنقلي إلى منصب في الشرق الأقصى ، وحينئذٍ اكتشفتُ أنني أحبها وأنني أتمنى أن أتخذها زوجة لي .. اكتشفت ذلك ونحن نتناول العشاء معا في فندق "**شبرد**" ولم يدهشني هذا الاكتشاف ، فقد كان بمثابة اعتراف بحقيقة أعرفها منذ وقت طويل .

نظرتُ إلى "**صوفيا**" بعين جديدة ، ولكني لم أر فيها غير ما ألفتُ رؤيته والإعجاب به ... رأيتُ الشعر الأسود الغزير يتوج رأسها ، والعينين الزرقاوين الصافيتين ، والأنف الصغير ، والذقن البارز الذي يدل على قوة الإرادة .

وكنت قد لاحظت بعد كل الأحاديث الصريحة التي دارت بيننا عن آرائنا وأصدقائنا أن "**صوفيا**" لم تذكر كلمة واحدة عن أسرتها .. كانت تعرف كل شيء عني .. وأنا لا أعرف عنها شيئا ... ولكني لم أفطن إلى هذه الحقيقة قبل تلك الليلة ... وسألتني "**صوفيا**" فيم أفكر فأجبتها :

– أفكر فيك .

– أحقا . . ؟

– إنني لا أعرف متى سأعود إلى "إنجلترا" ، ومن المحتمل جدا أن يمر عامان قبل أن نلتقي مرة أخرى . . . وقد كنت الآن أفكر في أن أول ما سوف أفعله عقب عودتي . . . هو أن أذهب إليك لأطلب يدك .

فاستقبلت النبأ في هدوء ، ولم يخفق لها هدب ، واستمرت تدخن دون أن تنظر إليَّ حتى خُيل إليَّ أنها ربما لم تفهم ما أعني . قلت لها :

– إنني مصمم على ألا أطلب يدك الآن . . . لأن ذلك . . . يكون ضربا من الغباء، أولاً لأنك ربما ترفضين فأذهب حزينا كسير القلب . . وقد يدفعني اليأس إلى أن أربط مصيري بمصير مخلوقة تافهة . . . وثانيا لأنك إذا وافقت فإنني لا أعلم ماذا نستطيع أن نفعل بعد ذلك . . . هل نتزوج فورا ونفترق غداً ؟ . . . أم نعقد خطوبتنا وننتظر إلى ما شاء الله ؟

إنني لا أريدك إذا ما قابلت رجلا آخر أن تشعري بأنك مرتبطة بي . . . نحن نعيش الآن فترة محمومة ، يتزوج فيها الناس بسرعة ، ويطلقون بسرعة وأنا أريد لك أن تعودي إلى ذويك حرة مستقلة ، لكي تنظري حولك في دنيا ما بعد الحرب، وتقرري ماذا تريدينه منها . . . وإذا قدر لنا أن نتزوج . . . فإنني أريد لزواجنا أن يدوم . . .

– لقد فهمت وجهة نظرك يا "تشارلس" . . . وفي استطاعتك أن تأتي لزيارتي عندما تعود إلى "إنجلترا" . . . ذلك إذا لم تكن قد عدلت عن رأيك .

– هذا ما لن يحدث .

– لا تجزم يا "تشارلس" . . إن أتفه شي قد يبدد أعز الأحلام ويطيح بأجمل الأمنيات . . ثم إنك لا تعرف شيئا عني . . أليس كذلك ؟

– الواقع أنني لا أعرف حتى عنوانك في "إنجلترا" .

– إنني أقيم في "سونيلي دين" .. وكنت أعلم أن "سونيلي" هي أبعد ضواحي "لندن" ، وبها ثلاث ساحات كبيرة للعب الجولف ، يختلف إليها رجال المال والأعمال لممارسة هوايتهم المفضلة. واستطردت "صوفيا" وهي مستغرقة في التفكير .. في بيت صغير مشوه..

ولاحظت دهشتي فأخذت تردد أغنية معروفة من أغنيات الأطفال :

" .. وكان ثلاثتهم يعيشون في بيت صغير مشوه"

هذا البيت الصغير كله أبراج .. ونحن جميعا نقيم فيه ..

– هل لك أسرة كبيرة ؟ ..

– كبيرة !.. إنها تتألف من أخ وأخت وأب وأم وعم وزوجة عم ، وجد .. وزوجته ، وشقيقة للجدة . فصحت مبهوتا :

– يا إلهي ! .. فضحكت وقالت :

– والجميع يعيشون في كنف الجد .. وهو رجل في الثمانين من عمره لا يزيد طوله على مائة وخمسين سنتيمترا .. ولكنه رجل يتضاءل أمامه كل الرجال .

– لابد أن له شخصية قوية ..

– نعم .. إنه يوناني من "أزمير" ويدعى "أرستيد ليونيدس" . ثم غمزت بعينها واستطردت قائلة : وهو واسع الثراء ..

– وهل سيكون في الدنيا أثرياء بعد هذه الحرب ؟

– إن جدي ثري وسيظل ثريا مهما وضعوا من قيود على رؤوس الأموال .. إنه يعرف كيف يقلم أظفار من يحاول أن يقلم أظفاره وصمتت قليلا ثم أردفت قائلة:

– إنني أتساءل .. ترى هل ستحبه ؟

– وهل تحبينه أنت ؟!

– أكثر من أي إنسان آخر في الدنيا .

*****

- 2 -

مر عامان قبل أن أعود إلى "إنجلترا" . . .

عامان طويلان كنت في خلالهما أكتب إلى "صوفيا" وكانت تكتب إليَّ . . كنا نتراسل لا كعاشقين يتطارحان الحب ، وإنما كصديقين عزيزين يجدان متعة في تبادل الآراء وتسجيل انطباعاتهما عما يعرض لهما في حياتهما اليومية . . ولكني رغم ذلك كنت أعلم أن مشاعري نحوها لم تتغير ، وكان لدي من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد بأن مشاعرها هي أيضا لم تتغير .

وقد وصلت إلى "إنجلترا" في يوم غائم من أيام شهر أيلول (سبتمبر) ، وكان النسيم عليلا ، وأشعة الشمس الغاربة تصبغ أوراق الشجر بلون الذهب . . فأرسلت من المطار البرقية التالية إلى "صوفيا" :

"وصلت الآن ، هل تتناولين معي طعام العشاء في التاسعة مساء بمطعم "ماريو" ؟ "

"تشارلس"

وبعد ساعتين ، كنت أتصفح جريدة "التايمز" فوقع بصري في صفحة الوفيات على النعي التالي :

"تنعي "بريندا ليونيدس" ببالغ الحزن والأسى زوجها "أرستيد ليونيدس"

الذي توفي في "سونيلي دين" يوم 19 أيلول (سبتمبر) عن خمسة وثمانين عاما" .

وتحت هذا النبأ مباشرة ، قرأت الإعلان التالي :

"ينعي أولاد "أرستيد ليونيدس " المأسوف عليه عميد الأسرة ، الذي توفي فجأة بقصره (القباب الثلاث) بضاحية "سونيلي دين" ، والعزاء بكنيسة "سانت أيلدريد" بالضاحية المذكورة "

وأدهشني هذا "الازدواج" في نشر النعي ، ورددته إلى خطإ مطبعي من جانب الجريدة .. وأرسلت إلى "صوفيا" على الفور هذه البرقية :

" علمت في التو واللحظة بنبإ وفاة جدك ، تقبلي عزائي .. متى سأستطيع مقابلتك ؟ "

"تشارلس"

وأجابت " صوفيا" ببرقية وصلتني في السادسة مساء بعنواني عند أبي وقد جاء بها :

" سأكون بمطعم "ماريو" في الساعة التاسعة "

"صوفيا"

*****

كان مجرد التفكير في أنني سأراها كافيا لأن يشد أعصابي ، فلم أستقر على حال إلى أن دنا موعد اللقاء فذهبت إلى مطعم "ماريو" في الساعة الثامنة والأربعين دقيقة وتأخرت "صوفيا" عن الموعد نحو عشرين دقيقة أخرى ، وكان ظهورها مفاجأة لي تختلف عما توقعته ، فقد كانت ترتدي ثوبا أسود ، وعلى الرغم من أن ذلك كان أمرا طبيعيا ، إلا أنه فاجأني إذ لم

أتصور قط أن "صوفيا" ترتدي ثوب الحداد حتى من أجل أعز الناس عليها .

تناولنا بعض أقداح الكوكتيل ، وتناقلنا أنباء أصدقائنا في "**القاهرة**" وتحدثنا طويلا في أمور كثيرة لا أهمية لها ، ولكن الحديث أزال ما كنا نشعر به من حرج ، ولما عبّرت لها عن أسفي لموت جدها قالت إن موته لم يكن متوقعا ، ثم عادت إلى الحديث عن القاهرة وبدأت أشعر بالقلق، فقد خيّل إلي أن أحاديثنا تفتقر إلى الصراحة والإخلاص وخطر لي أن "**صوفيا**" ربما عرفت رجلا آخر ظفر بقلبها من دوني .. أو لعلها اكتشفت أنها أساءت فهم حقيقة مشاعرها نحوي. وقد ظللت نهبة الشك إلى أن حمل إلينا الخادم أقداح القهوة فحينئذ ذاب الجليد دون أية محاولة من جانبي، وجدتني أجلس بجوار "**صوفيا**" أمام مائدة صغيرة في أحد المطاعم كسابق العهد بنا .. كما لو كنا لم نفترق طوال العامين الماضيين فهتفت باسمها في همس :

– "**صوفيا**" !

– "**تشارلس**" ! قالت ذلك بالصوت العذب الذي رجوت أن أسمعه ، فتنهدت بارتياح وهتفت قائلا :

– أخيرا ! .. وابتسمنا ... فسألتها :

– متى سنتزوج ؟ .. فتلاشت الابتسامة عن شفتيها وأجابت :

– لا أعلم يا "**تشارلس**" .. بل لست على يقين من أنني سأقترن بك يومًا ما .

– لماذا يا "**صوفيا**" .. هل ترين أنني تغيرت وأنك تحتاجين إلى بعض الوقت لكي تألفيني ؟ .. هل تحبين شخصا آخر ؟ فهزت رأسها ببطء وأجابت :

– لا .. وانتظرت مزيدا من الإيضاح فقالت على الفور :

– بسبب موت جدي .

– ماذا تعنين ؟ .. إن موته لا يغير شيئا .. وإذا كنت تفكرين في موضوع

المال فإن .. فقاطعتني :

– كلا .. لست أعني ذلك . واستطردت بعد قليل وعلى شفتيها ابتسامة يائسة:

– أنا أعلم جيدا أنك ستقترن بي حتى ولو لم أكن أملك درهما واحدا .. ومع ذلك فإن جدي لم يفقد أمواله وقد ترك ثروة كبيرة .

– إذن ؟!

– المسألة هي أنه لم يمت كما يموت سائر الناس .. وأنا أعتقد أنه قتل .

– وماذا يحملك على هذا الاعتقاد ؟

– لست أنا الوحيدة التي تعتقد ذلك . لقد رفض الطبيب توقيع شهادة الوفاة.. وسيجري تشريح الجثة .. وهذا دليل على أن هناك بعض الشك ..

ولم يكن في نيتي مناقشتها فإنها من الذكاء بحيث تعرف ما تقول . قلت لها:

– هذا الشك ربما لا يقوم على أساس .. وحتى لو كان على أساس فما علاقته بنا؟

– هل أنت واثق مما تقول .. هل نسيت أنك تعمل في السلك الدبلوماسي، وأن اختيار الزوجة عامل أساسي له تأثيره في مستقبل الرجل الدبلوماسي؟ أنا أعرف الإجابة التي تتحير على شفتيك وتريد أن تنطق بها .. ولكني أرجوك ألا تفعل .. إنها إجابة يمليها واجب الأدب والمجاملة .. وربما كانت بالنسبة إليك تعبر بصدق عن حقيقة شعورك وتفكيرك ... وأنا أقرك عليها من حيث المبدإ . ولكني امرأة تعتز بكبريائها .. ولا تريد لزواجها أن يتعرض للقيل والقال ... أو أن يتطلب منك تضحية أو شبه تضحية ... وعلى كل حال فإنه من المحتمل جدا أن ينتهي الأمر بسلام ...

– هل تعنين أن الطبيب ربما كان مخطئا ؟

– على فرض أنه لم يخطئ وكان هناك قاتل من الخارج فإن الأمر سوف ينتهي بسلام . ولم أفهم ما تعني، فمضت تقول :

– كان رهيبا ما ذكرته الآن .. أليس كذلك؟ ولكني أرى أن الصراحة أجدى وأفضل. وأدركت السؤال الذي يتحير على شفتي ، وأجابت عليه قبل أن أنطق به، قالت :

– كلا يا "تشارلس" ، لا أستطيع أن أزيدك إيضاحا ، بل ربما أكون قد قلت لك فعلا أكثر مما ينبغي .. إنني ما جئت الآن إلا لكي أقول لك إننا لن نستطيع أن نقطع برأي في أمر زواجنا قبل أن يماط اللثام عن سر مصرع جدي.

– ألا تزيدينني إيضاحا يا "صوفيا" ؟

– نعم يا "تشارلس" .. فلست أريدك أن ترى الأمور من وجهة نظري .. يجب أن تنظر إليها بلا تحيز .. كأي إنسان غريب لا صلة له بنا من قريب أو من بعيد .

– وكيف أستطيع ذلك ؟ .. فتألقت عيناها الزرقاوان وقالت :

– ستعرف من أبيك ... وكنت ونحن في "القاهرة" ، قد ذكرت لـ"صوفيا" أن أبي يعمل نائبا لمدير "اسكتلنديارد" .. وكان لا يزال يشغل هذا المنصب .. وأزعجتني عبارتها الأخيرة ، وسألتها :

– هل الأمر بهذا السوء ؟

– أظن ذلك .. هل ترى الرجل الذي يجلس وحيدا أمام المائدة بالقرب من الباب؟ .. يبدو أنه أحد رجال الشرطة ..

– يخيل إليّ ذلك ..

– إنه كان على رصيف محطة "سونيلي دين" عندما ركبت القطار إلى "لندن" ..

– هل تعقبك ؟

– نعم .. وأكبر الظن أننا جميعا تحت المراقبة . لقد ألحوا إلينا بأن من الأفضل ألا نغادر البيت ولكني جازفت لكي أراك .. وصمتت لحظة ثم استطردت قائلة :

– لقد خرجت من نافذة الحمام وهبطت على مواسير الماء ..

– يا إلهي!

– ولكن البوليس كان ساهرا .. ولا شك في أنهم قرؤوا البرقية التي بعثت بها إليّ.. مهما يكن الأمر فها نحن أولاء هنا معا .. وذلك هو المهم .. ولكن من سوء الحظ أنه يجب من الآن أن يلعب كلٌّ منا دوره على انفراد ، أنت من جانبك وأنا من جانبي .. وأقول من سوء الحظ؛ لأننا لا نزال متحابين ..

– أصغي إلي يا "صوفيا" إننا – أنت وأنا – قد عشنا معا حربا عالمية ، ورأينا معا الموت عن قرب ، فلا معنى الآن لأن يؤدي موت رجل عجوز .. بهذه المناسبة.. كم كان عمره ؟

– خمسة وثمانون عاما ..

– تماما .. كما ذكرت صحيفة "التايمز" .. لقد بلغ من الكبر عتيا .. ومات بسبب الشيخوخة .. ذلك ما يجب أن يقرره أي طبيب يعرف واجباته.

– لو أنك عرفت جدي .. لأدهشك أن يموت لأي سبب كان .

- 3 -

كنت دائما أهتم بالتحقيقات البوليسية التي يشرف عليها أبي ولكني لم أتوقع أن يثير أحد هذه التحقيقات اهتمامي لأسباب شخصية . ولم أكن قد

رأيت أبي منذ عودتي ، فإنه لم يكن بالبيت عندما وصلت إليه واغتسلت واستبدلت ثيابي وانطلقت للقاء "**صوفيا**" .. ولما عدت من هذا اللقاء أنبأني "**جلوفر**" – كبير الخدم – بأن أبي في مكتبه.·. فذهبت إليه ، ووجدته منهمكا في قراءة أوراق أمامه ، ولم يكد يراني حتى انبعث واقفا وهتف مرحباً .

– "**تشارلس**" ! .. هأنتذا أخيراً !

كان ذلك أول لقاء بيننا منذ خمس سنوات .. وعلى الرغم من أن ترحيبه بعودتي لم يتجاوز هذه الكلمات الثلاث ، إلا أن تأثره لم يكن أقل من تأثري .

كان كل منا يحب الآخر ويفهمه تماما . قال وهو يسكب الشراب في إحدى الكؤوس :

– لدي هنا بعض الشراب .. فاشرب منه كفايتك .. يؤسفني أنني لم أكن بالبيت لكي أستقبلك عند عودتك .. ولكني مثقل بالعمل .. ولم أكن بحاجة إلى القضية المزعجة الجديدة التي منيت بها اليوم ... فسألته :

– هل تعني قضية "**أرستيد ليونيدس**" ؟ فتفرس في وجهي لحظة ، ثم قطب جبينه وسأل :

– ماذا حملك على أن تقول ذلك يا "**تشارلس**" ؟

– ألست على صواب ؟

– كيف علمت ؟ وظل يحملق إلى وجهي انتظاراً لمزيد من الإيضاح فقلت :

– من مصدر موثوق به .

– ما هذا المصدر ؟

– قد لا يسرك أن تعرفه .. ولكن لا مناص من أن أفضي إليك بالحقيقة ..

إنني تعرفت إلى "**صوفيا ليونيدس**" في القاهرة وأحببتها، وأعتزم الاقتران بها وقد قابلتها الليلة وتناولنا طعام العشاء معا .

– هنا ؟ في "**لندن**" ؟ كيف فعلت ذلك ؟ .. لقد طلبنا إلى أفراد الأسرة – بأدب بالطبع – ألا يبرحوا البيت .

– أعلم ذلك . ولكنها خرجت من نافذة الحمام وهبطت على مواسير الماء .

فارتسمت على شفتيه ابتسامة وقال :

– يخيل إلي أنها فتاة ذكية .

– هو ذلك .. ولكن البوليس لم يغفل عنها ، فقد تبعها أحد رجالك إلى المطعم.. ومن المحقق أنه سيذكرني في تقريره إليك .. وسيقول إن "**صوفيا ليونيدس**" هربت من البيت وقابلت شابا أسود الشعر والعينين طوله 175 سنتيمترا.. يرتدي ثوبا رماديا .. إلخ ، فرمقني أبي بنظرة فاحصة وقال :

– حدثني يا "**تشارلس**" .. هل أنت جاد في مشروع الزواج هذا ؟

– نعم .. يا أبي .. فأطرق برأسه مفكرا ولزم الصمت .. سألته :

– هل يضايقك ذلك ؟

– إنه ما كان يضايقني لو أنني علمت به منذ أسبوع .. فالأسرة كريمة .. والفتاة سترث ثروة طائلة .. أما في الظروف الحالية ..

– ماذا ؟

– من المحتمل أن تجري الأمور على ما تهوى لو ..

– لو ؟

– لو ثبت أن القاتل من غير الأسرة .. وأثارت هذه العبارة فضولي .. فلقد سمعتها مرتين في تلك الليلة . سألته :

– ماذا تعني ؟ فرمقني مرة أخرى بتلك النظرة الفاحصة وقال :

– ماذا تعرف بالضبط عن القضية ؟

– لا شيء .

– لا شيء ؟ .. ألم تحدثك الفتاة عنها ؟

– نعم .. قالت إنها تفضل أن أنظر إليها بلا تحيز .. كأي غريب لا صلة له بالأسرة ..

– ليتني أعلم لماذا ..

– أليس السبب واضحا ؟ فلم يجب ، ونهض عن مكتبه ، وراح يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا وهو مطرق برأسه ، ثم سألني فجأة :

– ماذا تعلم عن هذه الأسرة يا "**تشارلس**" ؟

– أعلم أنها تتألف من الجد ومجموعة من الأولاد والأحفاد والأقارب والأصهار.. ولكنني لا أعرف تماما صلة كل منهم بالآخر ..

حبذا لو زدتني معرفة بهم . وعاد إلى مقعده أمام المكتب وقال :

– حسنا .. سأبدأ من البداية .. لقد جاء "**أرستيد ليونيدس**" إلى "**إنجلترا**" وهو في الرابعة والعشرين من عمره ..

– كان يونانيا من "**أزمير**" ..

– آه .. أتعلم ذلك ؟

– نعم هذا تقريبا هو كل ما أعلمه عنه . وفي هذه اللحظة ، فتح باب الغرفة ، وأطل منه "**جلوفر**" ليعلن قدوم المفتش "**تافرنر**" . فقال أبي :

– إنه المفتش المنوط به تحقيق القضية . سأسمح له بالدخول .. لقد تحرى عن الأسرة وأصبح يعرف عنها أكثر مما أعرف . فسألته عما إذا كان البوليس المحلي في ضاحية "**سونيلي دين**" هو الذي طلب معونة "**اسكتلنديارد**" . فأجاب :

– كلا .. إن "**سونيلي دين**" تقع في نطاق عملنا ؛ لأنها من ضواحي "**لندن**" . وكنت أعرف المفتش "**تافرنر**" منذ سنوات عديدة ، فشد على يدي

بحرارة ، وهنأني بالخروج سالما من الحرب .. فقال له أبي :

– كنت أحدث "**تشارلس**" عن "**أرستيد ليونيدس**" . فأرجو أن تصحح معلوماتي إذا أخطأت . . . ثم التفت إلي وقال :

– جاء "**ليونيدس**" إلى "**لندن**" سنة 1884 ، وافتتح مطعما صغيرا في حي "**سوهو**" وحالفه التوفيق فادخر بعض المال ، وافتتح مطعما آخر ، ثم مطعما ثالثا .. وهكذا حتى أصبح يمتلك سبعة مطاعم أو ثمانية تعمل كلها بنجاح . فقال "**تافرنر**" :

– ومن العجب أنه لم يقع طوال هذا الوقت في أي خطإ . واستطرد أبي قائلا :

– كان رجل أعمال بالغريزة ، وما لبث أن حول اهتمامه إلى مطاعم "**لندن**" غير المعروفة .. فراح يبتاعها ويعيد تنظيمها .. ثم بدأ يتجر في المواد الغذائية على نطاق واسع . فقال "**تافرنر**" :

– كان اهتمامه موزعا في مجالات كثيرة .. كتجارة الملابس المستعملة ، والجواهر المقلدة . . . فسألته :

– هل كان محتالا ؟ فهز المفتش رأسه وأجاب :

– لا .. كان فطنا ذكيا يعرف كيف ينفذ من ثغرات القانون ولكنه لم يرتكب قط ما يوقعه تحت طائلة العقاب . كان إذا بدأ عملا ، استغل قصور القوانين التي تحكمه ، فإذا تدارك المشرعون هذا القصور ، ترك هذا العمل إلى عمل آخر .. وهكذا .. واستطاع بذلك أن يجني أرباحاً طائلة خلال سني الحرب . فقلت :

– يخيل إلي أنه كان شخصية مقيتة . فأجاب أبي :

– بل كان على العكس من ذلك .. صحيح أنه كان من حيث المظهر قزما دميما .. إلا أنه كان يتمتع بشخصية جذابة حببته إلى النساء .. وقد وفق في

زواجه؛ إذ اقترن بابنة رجل محترم من تجار الفراء .

– زواج مصلحة بالتأكيد .

– بل زواج حب ، إنها قابلته ذات ليلة بينما كانت تشرف على إعداد مأدبة لمناسبة خطبة إحدى صديقاتها، فأحبته وصممت على الاقتران به على الرغم من معارضة ذويها .. ذلك لأنه كان لبقا ظريفا .. بينما كانت هي تعاني السأم والملل في بيت أسرتها .

– وهل كان الزواج سعيداً ؟

– إلى أبعد حدود السعادة .. على الرغم من أن أصدقاءهما قاطعوهما .. إذ لم يكن المال قد أزال الفوارق بين الطبقات بعد ، ولكنهما لم يعبآ بقطيعة الأصدقاء .. وشيدا بيتهما في "**سونيلي دين**" ، وعاشا سعيدين .. ورزقا بأولاد كثيرين .

– كما في الأساطير !

– لقد كان "**ليونيدس**" موفقا غاية التوفيق حين وقع اختياره على "**سونيلي دين**" ولم يكن في هذه الضاحية سوى ساحة واحدة للجولف ، ولكنها أخذت تزدهر ، وتتخذ طابع الضواحي الراقية .. وكان أهلها يتألفون من السكان الأصليين الذين يقيمون فيها منذ وقت طويل ، ويعنون أشد العناية بحدائقهم .. ومن رجال المال والأعمال الذين يتوقون إلى التعامل مع "**ليونيدس**" وهكذا أتيحت لـ"**ليونيدس**" وزوجته فرصة لاختيار من يروقهم من الأصدقاء .. وعاشا في سعادة تامة إلى أن أصيبت الزوجة بالتهاب رئوي وتوفيت في سنة 1905 .

– وتركت لزوجها ثمانية أولاد ..

– لقد مات أحد هؤلاء الأولاد وهو طفل وقتل اثنان في الحرب العالمية الأولى، وتزوجت إحدى الفتيات وهاجرت إلى "**أستراليا**" حيث توفيت ... وقتلت

فتاة أخرى في حادث سيارة ، وماتت فتاة ثالثة منذ عام أو عامين .. ولم يبق على قيد الحياة سوى الابن الأكبر ويدعى "**روجر**" وهو متزوج ولم يرزق بأولاد وابن آخر يدعى "**فيليب**" وهو متزوج من ممثلة معروفة وله منها ابنتان ، إحداهما "**صوفيا**" التي حدثتني عنها ، والثانية تدعى "**جوزيفين**" .. وولد يدعى "**أوستاش**" .

– وهل يقيمون جميعا في بيت (القباب الثلاث) ؟

– نعم .. كان "**روجر**" يقيم في "**لندن**" .. ولكن قنبلة سقطت على بيته في بداية الحرب فهدمته .. فانتقل إلى بيت (القباب الثلاث) .

وفي هذا البيت تقيم أيضا الآنسة "**أديث دي هافيلاند**" ، شقيقة الزوجة الأولى لـ "**أرستيد ليونيدس**" .. وكانت "**أديث**" تكره "**أرستيد**" وتحتقره فلما ماتت أختها ، رأت من واجبها أن تقبل دعوة "**أرستيد**" حين دعاها للإقامة عنده والإشراف على تربية الأولاد . فقال المفتش "**تافرنر**" :

– كانت تحترم واجباتها ولكنها لم تكن من أولئك الذين يغيرون آراءهم في الناس ، فظلت تحتقر "**ليونيدس**" وتدين وسائله وأساليبه . فقلت :

– صفوة القول أن البيت حافل بالناس .. فمن تظنه القاتل ؟ فهز المفتش كتفه وأجاب :

– إنني لم أقطع برأي بعد .. ذلك سابق لأوانه ..

– أراهن على أنك تعرف القاتل .. اذكره لنا بصفة خاصة أيها الصديق .. نحن لسنا في المحكمة .

– نعم .. نحن لسنا في المحكمة ومن المحتمل ألا نذهب إليها أبدا ..

– هل معنى ذلك أن العجوز لم يقتل ؟

– بل إنه قتل .. ولكن جرائم القتل بالسم تتشابه كلها في تعذر إقامة الدليل وإن تكن القرائن كلها تشير إلى شخص بعينه .. فصحت :

– هوذا اعتراف صريح بأنك تعرف القاتل .

– قلت إن هناك قرائن قوية .. ولكن لا يوجد دليل .. وأنا لست على يقين. فنظرت إلى أبي ملتمسا معونته فقال ببطء :

– جرت العادة في جرائم القتل أن يكون أوضح الحلول هو في الغالب أصوبها.. ولعلك لا تعلم يا "تشارلس" أن "ليونيدس" اتخذ لنفسه زوجة أخرى منذ عشرة أعوام ...

– وهو في الخامسة والسبعين من عمره ؟

– نعم .. وكانت الزوجة الجديدة في الرابعة والعشرين من عمرها . فلم أتمالك من أن أصفر بشفتي دهشة، وقلت :

– وأي نوع من النساء هي ؟

– فتاة صغيرة محترمة وجميلة كانت تعمل مضيفة في أحد مشارب الشاي.

– هل هي التي تحوم حولها أقوى الشبهات ؟ أجاب "تافرنر" :

– بالتأكيد .. إنها في الرابعة والثلاثين .. أخطر فترة في حياة المرأة .. وهي مولعة بالترف .. وفي البيت شاب في مقتبل العمر يعمل مدرسا للأولاد.. ولم يشترك في الحرب بدعوى أنه مريض بالقلب.. أو ما يشبه ذلك..

– وما نوع السم الذي استخدم في الجريمة ؟ هل هو الزرنيخ ؟

– لا .. إننا لم نتلق بعد تقرير معمل تحاليل المواد السامة .. ولكن الطبيب يعتقد أن السم الذي استخدم في الجريمة هو "الإيزيرين" .

– إنه سم غير مألوف .. وأعتقد أنه ليس من الصعب معرفة الشخص الذي اشتراه ..

– هذه ليست المشكلة .. فصاحب "الإيزيرين" هو "ليونيدس" نفسه ..

وكان يستخدمه كقطرة لعينيه . قال أبي :

– كان "**ليونيدس**" مريضا بالسكر .. وكان يحقن بـ"**الأنسولين**" بانتظام.. و"**الأنسولين**" يباع عادة في قنينة صغيرة لها سدادة من المطاط ، والطريقة المتبعة هي أن تملأ الحقنة بمادة "**الأنسولين**" من خلال السدادة .. ثم يحقن المريض ..

– فهمت .. كانت القنينة التي استخدمت في يوم الحادثة مليئة بـ"**الإيزيرين**" بدلا من "**الأنسولين**" .. أليس كذلك ؟

– تماما ..

– ومن الذي حقن "**ليونيدس**" ؟

– زوجته الشابة .. وهنا فقط فهمت ماذا كانت "**صوفيا**" تعني حين قالت : إن الأمر سوف ينتهي بسلام إذا كان القاتل من خارج الأسرة . سألت :

– وهل الأسرة على وفاق مع زوجة "**ليونيدس**" ؟

– لا .. إنهم لا يتبادلون الحديث إلا نادرا . كان كل شيء يبدو واضحا ، فالقرائن كلها تأخذ بتلابيب الزوجة الشابة .. وعلى الرغم من ذلك كانت تبدو على المفتش "**تافرنر**" دلائل الشك والتردد . فسألته ..

– يخيل إلي أن هناك ما يقلقك ؟ فأجاب :

– نعم .. فثمة شيء يتعذر علي فهمه .. إذا كانت الزوجة هي الجانية حقا .. فلماذا لم تبادر إلى استبدال قنينة "**الإيزيرين**" بأخرى تحتوي على "**أنسولين**" ؟ كان من السهل عليها أن تفعل ذلك .

– هل يوجد "**أنسولين**" بالبيت ؟

– يوجد كثير من القناني المليئة والفارغة .. ولو فعلت لما لاحظ أحد شيئا .. ذلك لأن "**الإيزيرين**" لا تظهر له أعراض أو آثار على جثة الميت ، وكل ما حدث في هذه القضية أن الطبيب فحص محتويات القنينة التي حقن

منها "**ليونيدس**" لكي يتحقق مما إذا كان "**الأنسولين**" مركزا أكثر مما ينبغي.. فاكتشف أن المادة التي بالقنينة ليست "**أنسولين**" . فقلت :

– يخيل إلي أن الزوجة الشابة إما ذكية جدا .. أو غبية جدا ..

– هل تعني ...؟

– أعني أنها ربما اعتمدت على أنكم لن تعتقدوا أن القاتل يمكن أن يكون على هذه الدرجة من الغباء بحيث لا يبادر إلى استبدال القنينة التي تحوي السم بأخرى تحتوي على "**الأنسولين**" .. هل هناك احتمالات أخرى يا سيد "**تافرنر**" ؟ أعني هل تحوم الشبهات حول شخص آخر ؟ فتصدى أبي للإجابة عن هذا السؤال، قائلا :

– من الناحية العملية ... جميع أفراد الأسرة تحوم حولهم الشبهات فإن البيت لم يخل قط من رصيد من "**الأنسولين**" يكفي أسبوعين ..

ولم يكن هناك أيسر من ملء إحدى القناني بـ "**الإيزيرين**" ووضعها مع قناني "**الأنسولين**" .. والانتظار حتى تستخدم في أحد الأيام .

– وهل صيدلية البيت في متناول الجميع ؟

– إنهم لا يغلقون صندوق العقاقير .. وقناني "**الأنسولين**" مرتبة به في صف واحد .. والصندوق نفسه موضوع في الحمام .

– والدافع إلى الجريمة ؟ فتنهد أبي وأجاب :

– يا عزيزي "**تشارلس**" .. إن "**ليونيدس**" كان واسع الثراء .. صحيح أنه أعطى ذويه كثيرا من المال .. ولكن يحتمل أن يكون أحدهم أو بعضهم قد طمع في المزيد .

– ويحتمل أن يكون هذا الطامع هو أرملته .. ولكن صديقها .. هل هو غني؟ فأجاب "**تافرنر**" :

– إنه أفقر من فأر الكنيسة .. ولفت نظري هذا التشبيه ، وتذكرت فجأة

أغنية الأطفال التي رددت "صوفيا" مقطوعة منها:

"كان هناك رجل مشوه .."

"يسير في طريق مشوه .."

"فوجد بيتا مشوها ، على حافة قناة مشوهة .."

"وبالبيت كانت قطة شوهاء .. قد اصطادت فأرا مشوها .."

"فعاش ثلاثتهم معا .. في البيت المشوه .." .

سألت "تافرنر" :

– ماذا كانت انطباعاتك عن السيدة "ليونيدس" الشابة ؟ ما رأيك فيها ؟

ففكر "تافرنر" طويلا قبل أن يجيب :

– ليس من السهل معرفة امرأة من هذا الطراز .. إنها هادئة جدا .. وديعة جدا .. ولكن من المتعذر معرفة ما يدور بخلدها . كل ما أستطيع أن أقوله.. هو أنها مولعة بالترف والحياة الرغدة .. وقد ذكرني مرآها بقطة خاملة مدللة.. ولكن هذه الأوصاف لا تقدم ولا تؤخر .. إن ما نحتاج إليه هو الدليل..

*****

وكنت أرى هذا الرأي ..

إن ما نحتاج إليه هو الدليل على أن السيدة "ليونيدس" الشابة سممت زوجها، كانت "صوفيا" تريد هذا الدليل .. وكذلك "تافرنر" .. وأنا .. فإذا وضعنا أيدينا على هذا الدليل .. ظهرت الحقيقة واستقامت الأمور . والمشكلة هي أن "صوفيا" لم تكن واثقة من شيء ، وكذلك "تافرنر" وأنا..

- 4 -

في اليوم التالي ، ذهبت مع "تافرنر" إلى البيت ذي القباب الثلاث ..

كان موقفي عجيبا .. أو على الأقل غير مألوف .

كنت في بداية الحرب أعمل في المخابرات بإدارة مكافحة الجاسوسية ، وكان في استطاعتي عند الضرورة أن أزعم أنني شرطي . أما الآن فإن الموقف يختلف تماما .. كان أبي قد قال لي في الليلة السابقة :

– إذا أردنا أن ننجح في حسم هذه القضية . وجب علينا أن نبدأ من الداخل .. وأن نعرف كل شيء عن أفراد الأسرة ، وإذا كان هناك إنسان يستطيع موافاتنا بالمعلومات التي نريدها فهو أنت . فلم أتمالك من الشعور بالاستياء وأجبت :

– معنى ذلك أن أعمل جاسوسا ؟ .. إنني أحب "صوفيا" وأعتقد أنها تحبني .. فكيف أستغل هذا الحب للتسلل بين أفراد الأسرة والبحث عن أسرارهم؟! فهز أبي كتفيه وقال بشيء من الضيق :

– لا تنظر إلى الأمور بطريقة أصحاب الحوانيت الصغيرة . هل ترتاب في أن تكون صديقتك قد قتلت جدها ؟

– أنا واثق من أنها لم تقتله .

– ذلك رأيي أيضا .. ولكنْ ثمة شيء مؤكد .. هو أنك لن تقترن بهذه الفتاة مادامت القضية لم تحل ، ومادام الشك يحوم حول كل فرد من أفراد الأسرة .. وهذه الجريمة من الجرائم التي قد لا تصل يد العدالة إلى مرتكبها .. ومن المحتمل أن تتحول ريبتنا في الأرملة وصديقها إلى يقين .. ولكننا نجد أنفسنا على الرغم من ذلك عاجزين عن عمل شيء .. لأننا لا نملك الدليل .

ونحن حتى هذه اللحظة لا نستطيع أن نوجه إليها أي اتهام. هل فهمتني؟

– نعم .. ولكن ... غير أنه لم يكلف نفسه عناء الإصغاء إلي ومضى يقول :

– أليس من الأفضل في هذه الحالة أن تعرض الموقف على "صوفيا" بوضوح وتستطلع رأيها ؟

*****

وهكذا ذهبت مع المفتش "**تافرنر**" والضابط "**لام**" لزيارة البيت ذي القباب الثلاث . واخترقت بنا السيارة ساحة الجولف المترامية أمام البيت .

*****

كانت "**صوفيا**" قد وصفت البيت بأنه مشوه ، وقد وجدت عندما وقع بصري عليه أن ذلك أصدق وصف له .. لم يكن بيتا ذا ثلاث قباب كما أسموه .. فقد أحصيت إحدى عشرة قبة .. يتألف منها منظر عجيب .. وكان البيت أشبه بنبات شيطاني برزت أغصانه في كل اتجاه بلا نظام . قال المفتش "**تافرنر**" وهو يتأمل البيت :

– بيت غريب .. أليس كذلك ؟ .. ولكنه مؤثث كأفخم القصور العصرية..

ولم يتسع لي الوقت للإجابة، فقد رأيت "صوفيا" تخرج من الباب الرئيسي. وما إن وقع بصرها علي حتى هتفت :

– أنت ؟ فأجبت :

– نعم .. هل أستطيع التحدث إليك ؟ فترددت لحظة قبل أن تتخذ قرارا ، ثم أومأت إلي أن أتبعها . وسارت بي في الحديقة إلى مقعد خشبي بين الأشجار وهناك جلست ، ودعتني إلى الجلوس بجوارها ، وقالت وهي تنظر بعيدا :

– حسنا ؟ ولم يكن في صوتها ما يشجع .. ولكنني تحدثت إليها بصراحة وإسهاب، وأصغت إلي باهتمام ، حتى إذا فرغت من حديثي، تنهدت وقالت :

– إن أباك رجل حكيم ..

– هذه فكرته .. وأنا شخصيا لا أقره عليها ..

– إنها فكرة وجيهة .. ولعلها الوسيلة الوحيدة للوصول إلى نتيجة . إن أباك يفهم وجهة نظري أكثر مما تفهمها أنت يا "**تشارلس**" إنه ليهمني جدا أن أعرف الحقيقة ..

– من أجل مستقبلنا ؟ .. إنها لن تقدم أو تؤخر بالنسبة إلينا ..

– ليس من أجل مستقبلنا فقط يا "**تشارلس**" .. إنني لم أجسر على مصارحتك بالحقيقة أمس .. الحقيقة هي أنني أشعر بالخوف .

– الخوف ؟

– نعم .. الخوف .. إن القاتل .. على ما يعتقد البوليس ، ويعتقد أبوك . وتعتقد أنت هو "**بريندا**" .. زوجة جدي ..

– جميع القرائن ..

– هذا صحيح .. ولكنني عندما أقول إن "**بريندا**" هي القاتلة أشعر بأنني لا أعبّر عما أعتقده .. وإنما أعبّر عما أتمناه ..

– هل تظنين أن ..

– أنا لا أظن شيئا . ولكنني أشعر في قرارة نفسي بأن "**بريندا**" ليست المرأة

التي تجازف بارتكاب جريمة كهذه . إنها أعقل وأبعد نظرا من أن تفعل ذلك .

– على فرض أنك على صواب .. فما قولك في "**لورانس براون**" .. الشاب الوثيق الصلة بها ..

– "**لورانس**" الشاب .. إنه أخوف من أرنب ..

– من أدراك ؟

– الواقع .. إن أحدا لا يستطيع أن يجزم بشيء .. فنحن كثيرا ما نخدع بالظواهر. ولكني مع ذلك لا أعتقد أن "**بريندا**" قد ارتكبت الجريمة .. إنها خلقت لتعيش في حريم أحد الأثرياء .. فهي تحب الترف والحياة الناعمة .. تحب الجلوس طول الوقت على أريكة مريحة .. وتحب أكل الحلوى وارتداء الثياب الجميلة والجواهر الثمينة ، وقراءة القصص والذهاب إلى الملاهي ودور السينما .. هذه هي الحياة المثالية بالنسبة إليها .. وأستطيع أن أضيف إلى ذلك أنها كانت تحب جدي على الرغم من فارق السن بينهما .. ولابد أنه كان يشعرها بأنها المحظية المفضلة في حريم السلطان . كان رجلا عجيبا ذا قدرة مذهلة على اجتذاب قلوب النساء ولا أظن أن الشيخوخة قد أضعفت مواهبه في هذا الصدد .

– قلت منذ لحظة إنك تشعرين بالخوف .. لماذا؟ فأجابت بصوت خافت :

– لأن هذه هي الحقيقة .. والأمر الذي أريدك أن تعرفه هو أننا أسرة غريبة تتألف من أفراد قساة القلوب .. ولكنها قسوة تختلف من حيث الشدة والنوع باختلاف الأشخاص . ولابد أنها لاحظت من قسمات وجهي مبلغ دهشتي مما سمعت فاستطردت قائلة :

– سأوضح لك ما أعني .. إليك مثلا جدي .. لقد حدثنا ذات يوم كيف أنه قتل بخنجره رجلين في "**أزمير**" لمجرد الظن بأنهما تعمدا إهانته .. قال لنا ذلك بهدوء كما لو كان قتل رجلين مسألة تافهة لا تستحق الندم أو التفكير .

كذلك كانت جدتي امرأة جامدة العاطفة .. نشأت بين صيادي الثعالب الذين لا يعرفون الرحمة فيما يتصل بالشرف ولا يتورعون عن قتل أقرب الناس إليهم برصاصة من بنادقهم لأتفه الأسباب .. فورثت صفاتهم وتطبعت بطباعهم ..

– ألست تبالغين في رسم هذه الصورة القاتمة لذويك ؟

– نعم .. لستُ أبالغ .. إن الإنسان يستطيع أن يكون شريفا ومجردا من الرحمة في ذات الوقت ، ولكن أمي تختلف عن الآخرين إنها لطيفة ولكنها أنانية إلى حد يثير فزعي في بعض الأحيان .

أما "كليمنسي" ، زوجة "روجر" فإنها لا تعيش إلا لأبحاثها العلمية المعقدة ، وتتمتع ببرود غير طبيعي وغير إنساني ، على النقيض من زوجها .. فإنه رجل لطيف دمث ولكنه إذا غضب تحول إلى شيطان مريد .. وأما أبي .. وصمتت لحظة ثم قالت : وأما أبي .. فإنه يعرف كيف يتحكم في مشاعره بحيث لا يستطيع أحد أن يتنبأ بما يدور بخلده أو يعتمل في قرارة نفسه ولكنه يثير قلقي ومخاوفي في كثير من الأحيان .

– هل أفهم من هذا أن كل فرد في أسرتك يستطيع ارتكاب جريمة قتل ؟

– نعم .. وأنا مثلهم .

– أنت ؟

– ولم لا ؟ .. إنني أشعر أحيانا بأنني أستطيع أن أقتل إنسانا .. وصمتتْ قليلا ثم أردفتْ :

– إذا كان يستحق القتل . وضحكت "صوفيا" وعلى الرغم مني ابتسمتُ ثم قالت :

– ربما كنت حمقاء.. المهم أننا يجب أن نميط اللثام عن الحقيقة وأن نعرف من الذي قتل جدي ؟! آه .. حبذا لو كانت "بريندا" هي القاتلة .

وفجأة .. اتجه تفكيري إلى "**بريندا**" .. وشعرت نحوها بالعطف والإشفاق..

- 5 -

رأيت سيدة طويلة القامة تقبل نحونا بخطى سريعة فقالت "**صوفيا**" في همس :

– ها هي ذي الخالة "**أديث**" .. واقتربت الخالة فنهضت واقفا ، وقالت "**صوفيا**" تقدم كلاً منا إلى الآخر ...

– أقدم إليك "**تشارلس هيوارد**" يا خالتي .... هذه خالتي الآنسة "**دي هافيلاند**" يا "**تشارلس**" . كانت "**أديث دي هافيلاند**" تناهز السبعين .. قد وخط الشيب شعرها ، ولوحت الشمس بشرتها . وسألتني وهي تحملق إلى وجهي بفضول :

– كيف حالك يا سيد "**هيوارد**" ؟ لقد سمعتهم يتحدثون عنك ، ويبدو أنك قادم من الشرق هل أبوك بخير ؟ ..

– نعم .. شكرا لك ..

– إنني عرفته وهو طفل .. وكنت كذلك أعرف والدتك إنك قريب الشبه منها.. هل جئت لمساعدتنا أم لعكس ذلك ؟ فأحسست بالحرج وأجبت :

– أرجو أن أكون ذا فائدة لكم .. فأومأت برأسها علامة الرضا وقالت :

– هذا حسن .. إن البيت يعج برجال الشرطة .. إنهم يبحثون في كل ركن.. ولبعضهم وجوه بغيضة ونظرات شريرة .. ثم نظرت إلى "**صوفيا**" قائلة:

– إن "**ناني**" تبحث عنك .. لتعدي السمك . فصاحت "**صوفيا**" :

– يا إلهي! .. كدت أنسى .. سأذهب إليها فورا .. وانطلقت مسرعة في الطريق إلى البيت وسرنا في أثرها ببطء .. قالت العجوز :

– لولا "ناني" لضعنا جميعا .. إنها الإخلاص مجسدا .. وهي تضطلع بكافة الأعمال .. تغسل الثياب وتطهو الطعام وتدير شؤون البيت .. إنها خادمة لا مثيل لها في هذه الأيام .. وأنا التي اخترتها .. منذ أعوام كثيرة .. وانحنت بسرعة لتلتقط حشرة علقت بذيل ثوبها . ثم اعتدلت وقالت :

– أود أن أصارحك يا "تشارلس هيوارد" بأن هذا الحادث قد ضايقني كثيرا .. إنني لا أطالبك بأن تذكر لي وجهة نظر البوليس .. لأنه لا يحق لك أن تذكرها .. ولكني من ناحيتي لا أتمالك من الشعور بالألم كلما فكرت في أن "أرستيد" قد مات مسموما .. بل وأتألم لمجرد التفكير في أنه مات .. أنا لم أكن أحبه .. ولكني لا أستطيع أن أتصور أنه مات .. لقد أصبح البيت دونه خاويا .. ولاحظت أن "أديث دي هافيلاند" تريد أن تفضي ببعض ذكرياتها فلزمت الصمت .. قالت

– لقد جئت إلى هذا البيت منذ أكثر من أربعين عاما .. جئت عقب وفاة أختي .. وتلبية لرغبة "أرستيد" .. كانت أختي قد تركت له ثمانية أولاد لا يزيد عمر أصغرهم على عام ، فلم أشأ أن أترك أمر تربية هؤلاء الصغار لهذا الرجل اليوناني . أفلم أكن على حق ؟ .. صحيح أن أختي "مارشيا" قد أخطأت بزواجها هذا الأجنبي .. ولكني كنت أشعر دائما بأن هذا الرجل الفظ الدميم لا بد أنه قد سحرها بطريقة ما .. وإحقاقا للحق أقول إنه أطلق يدي وترك لي حرية العمل فهيأت للأولاد الخدم والمربيات والطعام الجيد ولم أطعمهم قط ذلك الأرز المقيت المطهو بالتوابل الذي يحبه أبوهم .

– وهل بقيت معهم حتى بعد أن كبروا ؟

– نعم .. وقد يبدو ذلك عجيبا ولكن هذا ما حدث .. وأعتقد أنني بقيت

حبا في الحديقة .. وأيضا من أجل "فيليب" .. إن الرجل الذي يقترن بممثلة .. لا يستطيع أن يزعم أن له زوجة وبيتا .. وإني لأتساءل لماذا تلد الممثلات ؟ .. إنهن يتركن أولادهن وينطلقن للتمثيل في "دبلن" أو "جلاسجو" .. أو في أقصى الأرض .. ولكني أعتقد أن "فيليب" قد أحسن صنعا حين قرر الإقامة هنا مع كتبه..

– ما مهنته ؟

– إنه يكتب .. ولا أعلم لماذا ؟ فلا أحد يقرأ كتبه التي يسجل فيها أحداثا تاريخية لا تهم أحدا .. هل قرأت له ؟ فأجبت سلبا. فاستطردت قائلة :

– إن مصيبة "فيليب" أنه يملك أموالا طائلة. ولو كان محتاجًا إلى قوت يومه لبحث عن عمل جاد .

– وهل يربح كثيرا من كتبه ؟

– ذلك أعجب ما في الأمر ، فبعض الناس يعتقدون أنه حجة في حقبة من حقب التاريخ .. بَيْدَ أنه لا يحتاج إلى أرباحه من الكتب ، فقد أراد "أرستيد" الإفلات من الضرائب وخصوصا ضريبة التركات فمنح أولاده مبالغ طائلة تؤمن مستقبلهم.. وكان نصيب "فيليب" بضع مئات من آلاف الجنيهات .. أما أخوه "روجر" فقد أسند إليه "أرستيد" إدارة الشركة المتحدة للمواد الغذائية وأما "صوفيا" و"جوزيفين" و"أوستاش" فإن لكل منهم إيرادا لا بأس به من ريع الأسهم التي أودعت بأسمائهم .

– هل معنى ذلك أن موت الجد لا يفيد شخصا بذاته ؟

– هل تهزل ؟ .. إنه يفيدهم جميعا .. ويعود على كل منهم بمزيد من المال..

– من تعتقدين أنه قد سمم "أرستيد ليونيدس" يا آنسة "دي هافيلاند" ؟ هل لديك فكرة ؟ فأجابت دون أن تتردد :

– ليست لدي أية فكرة .. وذلك ما يضايقني .. لأنني لا أحب أن أتصور أن بين أفراد الأسرة قاتلا .. ولكنني أعتقد أن رجال البوليس يشتبهون في "بريندا" المسكينة .

– أرى أنك تتكلمين بلهجة من يعتقد أن هذا الاشتباه في غير موضعه ..

– الواقع أنني لا أعلم شيئا .. فقد كنت دائما أنظر إلى "بريندا" كامرأة غبية ضحلة .. وما هكذا في تصوري تكون المرأة التي تقتل بالسم .. ومع ذلك فإن الإنسان حين يرى امرأة في الرابعة والعشرين من عمرها تقترن برجل تجاوز الثمانين لا يسعه إلا الاعتقاد بأن المرأة تسعى وراء المال .. ومن المحتمل بطبيعة الحال أن تكون "بريندا" قد قالت لنفسها عقب الزواج إن زوجها لن يعيش طويلا .. وإنها ستصبح عما قريب أرملة ثرية .. ولكن "أرستيد" كان قوي البنية ، صلب العود ، فلم يهزمه مرض السكر وكان من المتوقع أن يعيش حتى يبلغ المائة عام .

– فمن المحتمل أن تكون "بريندا" قد سئمت الانتظار ..

– إذا صح ذلك ..

– ولم تدعني الآنسة "دي هافيلاند" أتم عبارتي وقاطعتني قائلة :

– إذا صح ذلك . . كان لنا ما نرجوه جميعا .. صحيح أن الناس سيتكلمون .. ولكن "بريندا" في الواقع ليست من صميم الأسرة ..

– أليست لديك أية نظرة أخرى ؟

– نعم .. لا يوجد .. ترى هل قالت الآنسة "دي هافيلاند" كل ما عندها؟ أظن أنها تعرف أكثر مما ذكرت .. ومن يدري . فلعلها هي التي سممت "أرستيد ليونيدس". ولم لا ؟ لقد رأيتها منذ لحظة تنتزع الحشرة من ذيل ثوبها بحزم وقسوة .. مما ذكرني بقول "صوفيا" ، إن كل من بالبيت ذي القباب الثلاث قادر على ارتكاب جريمة قتل .. بشرط أن تكون هناك

أسباب وجيهة تبرر الجريمة.. ترى ماذا كان لدى "**أديث دي هافيلاند**" من أسباب ؟ كان لابد لي أن أعرف المزيد عن هذه العانس العجوز لكي أستطيع الإجابة عن هذا السؤال ..

- 6 -

كان باب البيت مفتوحا ، فدخلنا ، واجتزنا بهوا فسيحا ثمين الأثاث ينتهي – لا بسلم كما هو مألوف بل بجدار ضخم في وسطه باب . قالت الآنسة "**دي هافيلاند**" :

– هذا الباب يؤدي إلى الجناح الخاص بـ "**أرستيد**" وزوجته ، أما "**فيليب**" و"**ماجدا**" فيقيمان في الطابق الأول ..

وانحرفنا يسارا في دهليز طويل ينتهي بسلم يؤدي إلى الطابق الأول ، ودخلنا قاعة استقبال أنيقة ذات أثاث رصين وستائر ثمينة ، وتزينها أصص الأزهار وصور بعض الممثلين والممثلات . قالت الآنسة "**دي هافيلاند**" :

– أعتقد أنك تود أن ترى "**فيليب**" . فسألت نفسي .. هل أود حقا أن أراه ؟.. إنني جئت لمقابلة "**صوفيا**" وقد قابلتها ، ووافقت على الخطة التي رسمها أبي .. ثم هرعت إلى المطبخ .. لشد ما أحتاج إليها الآن ، لترشدني إلى ما ينبغي عمله .

هل أقابل "**فيليب ليونيدس**" بصفتي صديق ابنته ؟ .. أم أقابله كشخص يريد التعرف به لسبب أخترعه ؟ .. أو بصفتي من أعوان الشرطة ؟

لقد ألقت عليَّ السؤال تأدبا .. وهي تعلم أن إجابتي لن تجدي شيئا .

– إنه في قاعة المكتبة .. فهلم بنا إليه .. واجتزنا دهليزا آخر .. ودخلنا من باب فوجدنا الكتب مكدسة من الأرض إلى السقف .. وثمة كتب في كل

مكان .. فوق الموائد وعلى المقاعد .. وعلى الأرض.. ولكنها لا توحي إلى الناظر بوجود فوضى .. كان جو الغرفة رطبا .. وقد افتقدت فيه رائحة كنت أتوقعها .. هي رائحة التبغ.. من المحقق أن "**فيليب ليونيدس**" لم يدخن ..

*****

كان جالسا أمام مكتبه فنهض واقفا حينما دخلنا ، ورأيت رجلا يناهز الخمسين من عمره طويل القامة على جانب كبير من الوسامة ..

لقد أجمع الذين حدثوني عن "**أرستيد ليونيدس**" على أن الرجل كان دميما غاية الدمامة فلم أتوقع أن أرى لابنه هذا الوجه الوسيم بقسماته الجميلة واستدارته المنتظمة . وأنفه المستقيم وجبينه المرتفع ، في إطار من شعر غزير وخطه الشيب .. وقدمتني إليه "**أديث دي هافيلاند**" فشد على يدي بحرارة وسألني بسرور عن صحتي .. ولكنني أحسست على الرغم من ذلك بأن أمري لا يهمه .. وأزعجني ذلك إلى حد ما .. قالت الآنسة "**دي هافيلاند**" تحدثه :

– أين إذن رجال الشرطة ؟ .. ألم يأتوا لمقابلتك ؟ فأجاب وهو ينظر إلى بطاقة على مكتبه :

– إنني في انتظار قدوم المفتش "**تافرنر**" بين لحظة وأخرى ..

– وأين هو الآن ؟

– لا أعلم يا خالتي .. ربما كان في الطابق الأول ..

– مع "**بريندا**" ؟

– أؤكد لك أنني لا أعلم . ولم يكن في مظهر "**فليب ليونيدس**" ما يوحي بأنه يمكن أن يتورط في ارتكاب جريمة ..

– وهل استيقظت "ماجدا" ؟

– لا أعلم .. إنها قلما تستيقظ قبل الساعة الحادية عشرة .

– يخيل إلي أنني أسمع صوتها ؟

والواقع ، أنني سمعت صوتا ثاقبا يقترب بسرعة .. ثم رأيت سيدة تدخل الغرفة .. أو على الأصح تقتحمها .

كانت تدخن من خلال مبسم طويل عضت عليه بأسنانها ، وتضم بيدها على جسدها غلالة رقيقة وردية اللون .. بينما انسدل شعرها الأشقر الطويل على كتفيها ..

نظرت إلينا بعينين زرقاوين واسعتين .. وانطلقت تتكلم بسرعة وبصوت أجش لا يخلو من عذوبة ، وهي تنطق بالألفاظ نطقا سليما .. قالت :

– كلا يا عزيزتي ... لم أعد أطيق كل هذا ... إن أعصابي تتمزق كلما فكرت فيما سوف تكتبه الصحف .. صحيح أنها لم تنشر شيئا بعد ، ولكنها ستبدأ حتما عما قريب .. ثم إنني لا أعلم ماذا يجب أن أرتدي خلال التحقيق.. لا بد من ثوب محتشم .. لا يكون أسود اللون .. أظن أنه ينبغي أن أبتاع ثوبا خاصا لهذه المناسبة .. ولكن رجال الشرطة سوف يتعقبونني إذا خرجت .. ومن يدري ماذا سيعتقدون ؟! إنني أعجب لك يا "فيليب " .. كيف تستطيع مواجهة الأمور بمثل هذا الهدوء ؟

ألا تعلم أنه محظور علينا أن نغادر البيت ؟ .. أي عار أكبر من هذا ! يا إلهي ! كم أشعر بالحزن كلما فكرت في ذلك العجوز العزيز المسكين، وكيف كان يغمرنا بعطفه على الرغم من أفاعيل تلك المرأة الشريرة وعلى الرغم من سعيها بالوقيعة بيننا وبينه ؟ .. لو قد نجحت مؤامرتها وغادرنا البيت لحققت كل أهدافها .. تصور رجلا مسكينا في الثمانين من عمره وحيدا بين براثن مخلوقة كهذه ! إن من حق أسرته أن تجزع وأن تخشى العواقب ..

وبهذه المناسبة .. أظن أن هذا هو الوقت المناسب لظهور المسرحية التي

وضعت عن "**أديث تومبسون**" .. تلك الزوجة الغادرة التي اتفقت مع عشيقها على قتل زوجها .. إن جريمة "**بريندا**" ستكون إعلانا هائلا للمسرحية .. ودور "**أديث تومبسون**" يناسبني تماما .. يزعم البعض أنني أصلح لأدوار الكوميديا .. ولكنني أعرف كيف سأستغل النص في هذه المسرحية .. سألعب الدور بهدوء وثبات إلى أن ...

وفجأة .. لوحت بساعديها .. فتسببت هذه الحركة في سقوط سيجارتها على المكتب . فتناول "**فيليب**" السيجارة بهدوء وأطفأها وألقى بها في سلة المهملات . واستطردت "**ماجدا**" قائلة بلهجتها المسرحية :

– إلى أن تحين اللحظة التي سأجعل فيها فرائص المشاهدين ترتعد من الرعب .

وانقلبت سحنتها ذعرا، واتخذ وجهها صورة تختلف تماما عن صورة امرأة ملك عليها الهلع كل حواسها . ثم انبسطت أسارير وجهها ونظرت إلي وسألتني :

– أكذلك يجب أن يُؤدَّى الدور؟ فأجبتها بالإيجاب على الرغم من أنني لم أكن لأعرف شيئا عن المسرحية أو عن "**أديث تومبسون**" .. ولكنني كنت شديد الحرص على كسب مودة والدة "**صوفيا**" . قالت :

– إن "**أديث تومبسون**" تشبه "**بريندا**" إلى حد كبير .. يا إلهي ! كيف لم أفطن من قبل إلى هذه الحقيقة ذات الدلالة الخطيرة .. لعل من الخير أن ألفت إليها نظر مفتش الشرطة . فقال "**فيليب**" :

– هل من الضروري أن تقابلي مفتش الشرطة يا "**ماجدا**" ؟ .. إنني سأفضي إليه بكل المعلومات التي يريدها . ولكنها صاحت محتجة :

– بل من الضروري جدا أن أقابله وأتحدث إليه أيها العزيز .. إنك تفتقر إلى الخيال وتفوتك ملاحظة التفصيلات الصغيرة المهمة، ويجب أن يعرف المفتش

بكل دقة ووضوح جميع الأمور التافهة التي لاحظها بعضنا وبدت في حينها غامضة مبهمة .

دخلت "**صوفيا**" في هذه اللحظة وسمعت حديث أمها فقالت :

– ماذا تقولين يا أماه ؟ .. لا شك أنك لا تريدين أن تسردي على المفتش مجموعة من الأكاذيب !

– ولكن يا "**صوفيا**" .. يا حبيبتي ..

– إنني أعرف ما يدور بخلدك .. وأعرف الدور الرائع الذي أعددت نفسك لتمثيله .. ولكنني أؤكد لك أنك على خطإ ..

– ماذا تعرفين أنت عن ...

– إنني أعرف ما يجب أن تفعليه ، تكلمي بإيجاز .. واحتفظي بمعلوماتك لنفسك ، وكوني على حذر .. واحمي الأسرة . فبدا على وجه "**ماجدا**" من دلائل الحيرة ما يبدو على وجوه الأطفال وقالت :

– إذن أنت تعتقدين حقا أن ...

– نحن لا نعرف شيئا مؤكدا .. هذا هو المبدأ .

ورأت "**صوفيا**" الابتسامة التي ارتسمت على شفتي أمها فاستطردت قائلة :

– لقد أعددت لك قدحا من الكاكاو .. إنه في انتظارك على المائدة في قاعة الاستقبال .

– أحسنت صنعا أيتها العزيزة .. إنني أكاد أموت جوعا .. وسارت "**ماجدا**" إلى الباب ، وهناك نظرت وراءها وقالت :

– أنا لا أعلم هل كانت توجه الحديث إلي .. أم إلى صفوف الكتب خلفي؟ أنت لا تعلم مبلغ سعادة الأم حين تكون لها ابنة تحبها . وخرجت .. فتنهدت الآنسة "**دي هافيلاند**" وقالت :

– الله وحده يعلم ماذا ستقول لمفتش الشرطة . فقالت "**صوفيا**" :

– اطمئني .. سيكون كل شيء على ما يرام .

– إنها خليقة بأن تحكي أي شيء ..

– كلا يا خالتي .. إنها ستطيع تعليمات المخرج .. والمخرج في هذه المسرحية هو أنا .. قالت ذلك وخرجت لتلحق بأمها .. ولكنها ما لبثت أن عادت على الأثر لتعلن إلى أبيها أن المفتش "**تافرنر**" يرغب في مقابلته . واستطردت قائلة : وأرجو ألا تجد غضاضة في أن يشهد "**تشارلس**" هذا اللقاء بينك وبين المفتش . دهش "**فيليب ليونيدس**" ، ولكنه أجاب بأن الأمر سيان عنده وبعد لحظة ، دخل "**تافرنر**" بجسمه الضخم ، وخطواته الثابتة .. كانت الآنسة "**دي هافيلاند**" أول من تكلم .. قالت :

– هل تحتاج إليَّ يا سيدي المفتش ؟

– ليس الآن يا آنسة .. ولكن فيما بعد إذا سمحت لي ببعض دقائق من وقتك

– بكل تأكيد .. وسوف تجدني في الطابق الأول . خرجت ، وجلس "**تافرنر**" ، وعاد "**فيليب ليونيدس**" إلى مقعده خلف المكتب.

– أعلم أنك رجل كثير المشاغل يا سيد "**ليونيدس**" ، ولكني لن أثقل عليك طويلا .. لقد رأيت من واجبي أن أنبئك بأن شكوكنا قد تحققت ، وأن أباك لم يمت موتة طبيعية ، بل مات مسموما بجرعة كبيرة من المادة المعروفة باسم "**الإيزيرين**" . فأومأ "**فيليب**" برأسه علامة الموافقة.. ولم يبد عليه شيء من دلائل الانفعال. قال المفتش :

– هل ما ذكرته لك الآن يوحي إليك بأية فكرة ؟

– لا .. واعتقادي هو أن أبي ذهب ضحية خطإ مؤسف .

– أتعتقد ذلك حقا ؟

– إن الأمر واضح .. وحدوثه محتمل .. ولا تنس أن أبي كان في العقد

الثامن من عمره وأن قوة إبصاره ضعفت كثيرا .

– تعني أنه ربما خلط بين "**الأنسولين**" و"**الإيزيرين**" وسكب محتويات قنينة إحدى المادتين في قنينة المادة الأخرى . هل ترى ذلك ممكنا ؟ فصمت "**فيليب ليونيدس**" ولم يجب .. قال "**تافرنر**" :

– إننا عثرنا على قنينة "**الإيزيرين**" ولم نجد عليها أية بصمات ، وهذا أمر يبعث على الدهشة .. إذ كان ينبغي أن نجد عليها بصمات أبيك أو بصمات زوجته .. أو خادمه . فرفع "**فيليب**" رأسه وقال :

– الواقع أن هذا صحيح .. ولكن هل فكرت في أمر الخادم ؟

– هل تريد أن تقول إن الخادم "**جونسون**" ربما يكون هو القاتل ؟

إنني أوافقك على أنه كان بوسعه أن يرتكب الجريمة .. ولكن ماذا يدفعه إلى ارتكابها ؟ .. لقد كان أبوك يعطيه منحة سنوية تزداد عاما بعد عام وكان يصارحه بأن هذه المنحة تعوضه عما كان ينبغي أن يوصي به له بعد موته . ومن هذا يتبين لك أنه كان من مصلحة "**جونسون**" أن يعيش أبوك أطول مدة ممكنة؛ لأن المنحة السنوية التي يحصل عليها تزداد عاما بعد عام . يضاف إلى ذلك أن التفاهم كان تاما بين أبيك وخادمه .. وأن ليس في ماضي الخادم ما يثير الريبة فهو خادم مخلص يعرف عمله وواجباته . صمت قليلا ثم استطرد قائلا :

– إننا لا نرتاب في "**جونسون**" . فأطرق "**فيليب**" برأسه ولم يتكلم . قال المفتش:

– هل تستطيع أن تذكر لي يا سيد "**ليونيدس**" ماذا فعلت يوم أن مات أبوك ؟

– بالتأكيد أيها المفتش .. أنا لم أبرح هذه الغرفة طول النهار .. فيما عدا وقت تناول الطعام .

– ألم تر أباك في ذلك اليوم ؟

– لقد ذهبت إليه بعد الفطور لأحييه تحية الصباح كما تعودت أن أفعل كل يوم.

– هل وجدته بمفرده ؟

– كانت زوجته معه في الغرفة .

– هل كان يبدو كما تعودت أن تراه ؟ فأجاب "فيليب" بشيء من السخرية أنّ أباه لم يكن يبدو وكأنه يتوقع اغتياله في ذلك اليوم . فاستطرد المفتش :

– هل كان أبوك يقيم في جناح مستقل تماما ؟

– نعم .. ولا سبيل للوصول إلى هذا الجناح إلا عن طريق الباب الموجود بالبهو.

– هل يغلق هذا الباب بالمفتاح ؟

– لا .

– أبدا؟

– أبدا .. على قدر ما أعلم .

– إذن فالمرور مباح من الجناح الخاص بأبيك وإليه ؟

– نعم .

– كيف علمت بنبإ الوفاة ؟

– جاء أخي "روجر" الذي يقيم في الجناح الغربي من الطابق الأول إلى مكتبي وهو يعدو وقال لي : إن أبي يشعر بانهيار ويتنفس بصعوبة وإنه يبدو في حالة سيئة .

– وماذا فعلت ؟

– اتصلت تليفونيا بالطبيب ، وذلك ما لم يفكر فيه أحد . ولكني لم أجده ، فتركت له رسالة بأن يحضر بأسرع ما يستطيع . ثم صعدت إلى

الطابق الأول ووجدت أبي في حالة سيئة فعلا وقد توفي قبل حضور الطبيب .

وكان يتكلم وليس في صوته أي أثر للانفعال .. كمن يروي حادثة لا صلة له بها من قريب أو من بعيد .

– وأين كان باقي أفراد الأسرة ؟

– كانت زوجتي في "**لندن**" وقد عادت بعد قليل ، وأظن أن "**صوفيا**" كذلك لم تكن في البيت .. أما "**جوزيفين**" و"**أوستاش**" فكانا في غرفتهما.

– أرجو ألا تستاء يا سيد "**ليونيدس**" إذا سألتك عن مدى تأثير موت أبيك في مركزك المالي .

– أنا أعلم جيدا يا سيدي المفتش أن هذه أمور يهمك أن تعرفها. لقد حرص أبي منذ سنوات عديدة على أن يؤمن مستقبلنا ويكفل لكل منا استقلاله المالي. فجعل من أخي المدير والمساهم الرئيسي في أكبر وأهم شركاته ، وهي الشركة المتحدة للمواد الغذائية ، وأعطاني من المال والسندات ما يوازي نصيب أخي في الشركة،أي نحو مائة وخمسين ألفا من الجنيهات . أستطيع التصرف فيها كما أريد .

– وهل بقيت له بعد هذه المنح والهبات ثروة جسيمة ؟

– لا .. إنه لم يحتفظ لنفسه إلا بإيراد متواضع يكفي – على حد قوله – لإثارة اهتمامه بالحياة . وابتسم لأول مرة واستطرد قائلا :

– بعد ذلك زاول كثيرا من الأعمال المختلفة وأثرى مرة أخرى .. بل أصبح أكثر ثراء مما كان في أي وقت مضى ..

– عندما قررت أنت وأخوك الإقامة هنا .. هل كان ذلك بسبب بعض المتاعب المالية ؟

– لا .. إننا قررنا ذلك؛ لأن الإقامة هنا تطيب لنا ، ولأن أبي قال مرارا

وتكرارا إنه يسعده أن نعيش معه تحت سقف واحد . وبصرف النظر عن حبي الخالص لأبي فقد كان لدي من الأسباب الشخصية ما حملني على الإقامة مع الأسرة ، فجئت إلى هنا في سنة 1937 ، ولحق بي أخي في سنة 1941 عندما هدمت القنابل بيته في "**لندن**" .

– هل لي أن أسألك يا سيد "**ليونيدس**" عما إذا كانت لديك أية فكرة عن مضمون وصية أبيك ؟

– إنني أعرف جيدا ما جاء بالوصية .. لقد أعاد كتابتها في سنة 1945 عقب انتهاء الحرب .. جمعنا في مكتبه فيما يشبه المجلس العائلي ، وطلب إلى محاميه السيد "**جيتسكيل**" أن يتلو علينا الوصية، وأعتقد أن هذا المحامي قد أبلغك مضمونها .. لقد أوصى فيها لأرملته بمائة ألف جنيه خالية من الضرائب ، وقسّم ما تبقى من ثروته إلى ثلاثة أقسام ، أحدها لي والآخر لأخي .. والثالث لأولادي الثلاثة .. "**صوفيا**" و"**جوزيفين**" و"**أوستاش**" .

– ألم يوص بشيء للخدم أو للمؤسسات الخيرية ؟

– نعم ، لم يفعل ، ولكنه كان يعطي الخدم منحا سنوية تتزايد عاما بعد عام .

– معذرة عن هذا السؤال يا سيد "**ليونيدس**" . هل أنت حاليا في مأزق مالي؟

– أنت تعلم يا سيدي المفتش أن الضرائب باهظة .. ولكن إيرادي يكفيني ويزيد .. وقد كان أبي سخيا معنا كل السخاء ، وعند الضرورة لم يكن يحجم عن معونتنا . ثم أردف قائلا بصوت هادئ :

– في استطاعتي أن أثبت لك بالدليل أيها المفتش أنه ليست لدي أية أسباب مالية تجعلني أتمنى موت أبي .

– يؤسفني يا سيد "**ليونيدس**" أن أكون قد أشعرتك بأنني أفترض غير

ذلك.. ومن سوء الحظ أن مقتضيات التحقيق تلجئني إلى إلقاء أسئلة شخصية جدا كالسؤال الذي سألقيه عليك الآن خاصا بالعلاقة بين أبيك وزوجته . هل كانت العلاقة بينهما حسنة ؟

– كانت حسنة جدا على قدر ما أعلم .

– هل كانا يتشاجران ؟

– لا أظن ذلك .

– هل كان بينهما فارق كبير في السن ؟

– نعم .

– هل وافقت على زواج أبيك بزوجته الثانية ؟

– إنه لم يستطلع رأيي .

– هذه ليست إجابة يا سيد "**ليونيدس**" .

– مادمت تصر .. فإنني أعترف لك بأنني كنت أنظر إلى هذا الزواج على أنه خطأ .

– هل قلت ذلك لأبيك ؟

– إنني لم أعلم بأمر الزواج إلا بعد أن أصبح حقيقة .

– أظن أن النبأ كان صدمة لك ؟ فصمت "**فيليب**" ولم يجب وقال "**تافرنر**" :

– هل غضبت من أبيك بسبب هذا الزواج ؟

– إنه كان حرا يفعل ما يشاء .

– وهل كنت دائما على علاقة طيبة مع زوجة أبيك ؟

– دائما . وانتقل "**تافرنر**" إلى موضوع آخر .. وقال :

– هل تستطيع أن تحدثني عن السيد "**لورانس براون** " ؟

– لا أظن .. إن أبي هو الذي استخدمه .

– ولكنه استخدمه لتعليم أولادك يا سيد "**ليونيدس**" .

– هذا صحيح .. فقد أصيب "**أوستاش**" بشلل الأطفال . ومن حسن الحظ أنها كانت إصابة خفيفة .. ولكن رأى أنه من الأفضل ألا يتابع دراسته في المدارس العامة.. واقترح أبي أن يعهد به وبأخته "**جوزيفين**" إلى مدرس خاص وكان من المتعذر الحصول على مثل هذا المدرس في زمن الحرب لانخراط الجميع في سلك الجندية .. وأخيرا وجدنا "**لورانس براون**" .. الذي قدم إلينا شهادات طيبة رضي عنها أبي وخالتي.. التي تكفلت بتربية الأولاد. فاستخدمناه .. ويجب أن أقرر إحقاقا للحق أنه مدرس كفء حي الضمير .

– هل يقيم معكم في هذا البيت ؟

– لا .. فليس في البيت متسع له .

– هل لاحظت في أي وقت – ومعذرة عن هذا السؤال – وجود علاقة خاصة بين "**لورانس**" وزوجة أبيك ؟

– لا .

– هل سمعت كلاما عن وجود مثل هذه العلاقة ؟

– أنا لم أتعود استراق السمع على الأبواب أيها المفتش .

– صدقت .. إذن لا تعرف شيئا بهذا الصدد ؟

– لا .. فقال "**تافرنر**" وهو ينهض :

– حسنا .. لم يبق لي إلا أن أشكرك يا سيد "**ليونيدس**" . وخرج فتبعته.. وما إن وصلنا إلى الدهليز حتى قال :

– هو ذا زبون صعب المراس .

قال المفتش "تافونر" مستطردا :

– والآن .. هلم بنا نتجاذب أطراف الحديث مع السيدة "**فيليب ليونيدس**" في مسرح "**ماجدا ويست**" .

– هل هي ممثلة جيدة ؟

– إنها من أولئك اللائي يستطعن النجاح .. قامت ببطولة مسرحية أو مسرحيتين في حي "**الويست إند**" وأحرزت بعض الشهرة في المسرحيات الكلاسيكية ويبدو أن لها معجبين في المسارح التي يختلف إليها المتحذلقون... والمؤسف في أمرها أنها لا تحتاج إلى التمثيل كمصدر للرزق .

ففي استطاعتها دائما أن تختار الدور الذي تريده ، وأن تسهم في تمويل المسرحية التي تعتقد أن بها دورا يصلح لها ثم يظهر في النهاية أن الدور لا يلائمها إطلاقا .. صفوة القول : إنهم يعدونها هاوية لا محترفة .. صحيح أنها موهوبة .. ولكن المخرجين لا يحبونها لاعتدادها بنفسها وثرثرتها .. وما إن غادرنا قاعة الاستقبال حتى لحقت بنا "**صوفيا**" وقالت للمفتش : إن أمها على استعداد لاستقباله . ودخلنا الغرفة التي تقدمتنا إليها .. فرأيت امرأة كدت ألا أعرفها ، تجلس على أريكة فخمة في أحد أركان الغرفة ..

كانت ترتدي "تايير" رماديا أنيقا ، يطل منه قميص بنفسجي ويتدلى فوق صدرها عقد ثمين من اللؤلؤ ..

ومرت لحظة قبل أن أعرف في هذه السيدة الأنيقة الوادعة تلك المرأة الصاخبة التي رأيتها قبلا في مكتب "**فيليب ليونيدس**" . قالت بصوت فهمت من نبراته أنها مصممة على الاحتفاظ بهدوئها حتى النهاية مهما كلفها ذلك :

– تفضلا بالجلوس .. هل تدخن أيها المفتش ؟ .. إن هذه القضية تقلقني

حتى أشعر في بعض الأحيان أنني في حلم .. بماذا أستطيع أن أفيدك أيها المفتش ؟ فأجاب "**تافرنر**" :

– اسمحي لي أولا يا سيدتي بأن أسألك أين كنت عندما توفي السيد "**أرستيد**" ..

– كنت قادمة بالسيارة من "**لندن**" ، فقد تناولت طعام الغداء مع صديقة لي بمطعم "**إيفي**" ، ثم شهدنا عرضا للأزياء وغادرت "**لندن**" بعد ذلك .. وعندما وصلت إلى هنا علمت أن السيد "**أرستيد**" قد توفي .. وارتجف صوتها في العبارة الأخيرة بالقدر اللازم تماما .

– هل كنت تحبينه ؟

– جداً .. وارتفع صوتها قليلا ، فدقت "**صوفيا**" بإصبعها على إطار صورة فوق الموقد .. وكانت النتيجة أن "**ماجدا**" خفضت صوتها وهي تقول : نعم.. كنت أحبه .. كلنا كنا نحبه .. فقد كان لطيفا معنا جميعا .

– هل كنت على وفاق مع زوجته ؟

– مع "**بريندا**" ؟ .. نحن لم نكن نراها إلا قليلا ..

– لماذا ؟

– لم تكن لنا صلة بها.. مسكينة " **بريندا**" .. لابد أنها مرت بأوقات عصيبة.. وهنا نقرت "**صوفيا**" بإصبعها على إطار الصورة مرة أخرى .. قال المفتش:

– أحقا ؟ .. ماذا تعنين ؟ .. فهزت "**ماجدا**" رأسها وعلى شفتيها ابتسامة حزينة:

– لا أعلم .

– هل كانت سعيدة ؟

– أظن ذلك .

–هل كانت تتشاجر مع زوجها ؟

– الحق أنني لا أعلم يا سيدي المفتش .

– أعتقد أنها كانت على صلة وثيقة بـ "**لورانس براون**" .. أليس كذلك ؟

فاعتدلت "**ماجدا**" في جلستها فجأة وقالت بكبرياء :

– يخيل إلي أنه ليس من حقك أن تلقي علي مثل هذه الأسئلة أيها المفتش .. لقد كانت لـ "**بريندا**" صلات وثيقة بجميع الناس ، فهي سيدة مجتمع من الطراز الأول .

– والسيد "**لورانس**" .. هل هو شخص لطيف ؟

– إنه شاب هادئ دمث الخلق .

– هل أنت راضية عنه كمدرس ؟

– كل ما أعلمه هو أن "**فيليب**" راض عنه كل الرضا . وهنا لجأ "**تافرنر**" إلى أسلوب أكثر صراحة .. قال :

– معذرة عن هذا السؤال ولكن هل كانت هناك مغازلات بين "**لورانس براون**" والسيدة "**بريندا ليونيدس**" ؟ فانبعثت "**ماجدا**" واقفة كسيدة غضبى وصاحت :

– أنا لم أر شيئا وليس من حقك أن تستجوبني في هذا الموضوع .. لقد كانت "**بريندا**" زوجة حماي .

فكدت أصفق إعجابا .. أما المفتش فإنه نهض بدوره وهو يقول :

– هذا سؤال ربما يحسن بي أن ألقيه على الخدم ..

فصمتت "**ماجدا**" ولم تجب ، وشكرها "**تافرنر**" وحياها بإيماءة من رأسه وانصرف . وصاحت "**صوفيا**" على الأثر .

– مرحى .. ! أحسنت يا أماه .. حقا لقد كنت رائعة . فأجابت "**ماجدا**" :

– نعم .. هكذا كان يجب أن ألعب هذا الدور . ونظرت "صوفيا" إلي وقالت :

– أما كان يحسن بك أن ترافق المفتش ؟

– ولكن يا "صوفيا" .. ولم أتم عبارتي .. لم يكن باستطاعتي أن أسألها على مسمع من أمها عن الدور الذي ينبغي أن أقوم به في ذلك البيت .. إن "**ماجدا ليونيدس**" لم تعرني حتى تلك اللحظة أي اهتمام ..

وسواء أكنت مخبرا صحفيا أم خطيبا لابنتها أم مرشدا مغمورا يعمل في خدمة البوليس .. فإنني كنت بالنسبة إليها مجرد (جمهور) يشهد تمثيلها ويصفق لها أو لا يصفق . أومأت "صوفيا" إلي برأسها ، فنزلت على إرادتها . وهرولت في أثر "**تافرنر**" ولحقت به في البهو وهو يمر بالباب المؤدي إلى السلم .. قال لي إنه في طريقه لمقابلة "**روجر**" .. الأخ الأكبر .. فقررت أن أصارحه على الفور بمشكلتي ... قلت له :

– حدثني يا "**تافرنر**" .. ماذا أفعل أنا هنا ؟ .. فنظر إلي بدهشة وقال :

– ماذا تفعل هنا ؟

– نعم .. إذا سئلت عن صفتي هنا فبماذا أجيب ؟

– هل هذا ما يقلقك ؟ ثم استطرد بعد لحظة تفكير :

– هل سئلت ؟

– لا .

– إذن لا تفكر في الأمر ولا تدل بأي إيضاح .. هذه هي الطريقة المثلى .. وخصوصا في بيت كهذا .. كل إنسان لديه من الهموم والمتاعب ما يصرفه عن التفكير في استجواب الآخرين .. إن أحدا لن يسألك شيئا مادمت تتظاهر بأن من حقك أن تكون هنا .. والآن هلم بنا .

*****

وما إن شرعنا نرتقي السلم حتى قال :

– لا شك في أنك لاحظت أن جميع الأسئلة التي ألقيتها عليهم لا أهمية لها .. وأنني لا يعنيني ماذا كان يفعل هذا أو ذاك عندما لفظ العجوز أنفاسه الأخيرة .

فسألته في دهشة :

– لماذا تستجوبهم؟

– لأن استجوابهم يهيئ لي فرصة لمعرفة أسباب الخلاف بينهم .. ولأن ثرثرتهم قد تتضمن معلومات تفيدنا . ثم استطرد قائلا بصوت خافت :

– قلبي يحدثني بأن "ماجدا ليونيدس" تستطيع إذا شاءت أن تدلي إلينا بحقائق على جانب عظيم من الأهمية .

إن ما يجري في هذا البيت هو أن كل إنسان فيه يملك القدرة والوسيلة لارتكاب الجريمة .. وأنا لذلك لا أتحدث عن المجرم .. وإنما أبحث عن الدوافع إلى الجريمة .

*****

وتوقفنا في نهاية السلم أمام باب مغلق . وقرع المفتش الباب ففتحه عملاق ضخم الجسم ، عريض الكتفين ، أشعث الشعر . كان دميم الوجه .. دمامة تثير العطف . وذكر "تافرنر" اسمه .. فقال الرجل :

– تفضلا بالدخول .. لقد كنت أهم بالخروج ، ولكن لا ضرورة لذلك الآن .. أقبلا إلى قاعة الاستقبال .. وسأخطر "كليمنسي" بقدومكما .. آه .. أنت هنا أيتها العزيزة ؟ هذا هو المفتش "تافرنر" .. أظن أنه لا توجد سجائر هنا ! .. صبرا لحظة . سأحضر بعض السجائر وأعود فورا .

وغادر المكان . وأحسسنا بنعمة السكون بعد الجلبة الشديدة التي أحدثها.

وكانت زوجته تقف على مقربة من النافذة .. فنظرت إليها ولم أتمالك من الإحساس بأنها شخصية تثير الفضول .. كذلك أثار فضولي جو الغرفة التي دخلناها ..كانت الجدران عارية من كل زخرف ، خالية من اللوحات والأزهار فيما عدا لوحة فوق الموقد عليها رسوم هندسية متشابكة .. أما الأثاث فكان قليلا .. بضعة مقاعد ، ومائدة مغطاة بالزجاج ، وخزانة صغيرة للكتب .. ولكن كان هناك كثير من الضوء .. والفراغ والهواء .

*****

كان الفارق بين قاعة الاستقبال في شقة "**ماجدا**" بأثاثها الفخم ولوحاتها وآنيتها وأزهارها وبين قاعة الاستقبال في شقة "**كليمنسي**" بهدوئها وبساطتها المحببة كالفارق بين المرأتين .. فالأولى لها ثلاثون شخصية مختلفة... أما الثانية فلها شخصية واحدة هي شخصيتها الحقيقية التي لا ترضى بأن تتقمص شخصية سواها. كانت "**كليمنسي**" تناهز الخمسين من العمر، لها شعر قصير قد وخطه الشيب، وعينان جميلتان تشعان ذكاء وحيوية وكانت ترتدي ثوبا أحمر من الصوف يبرز نحول جسدها وطول قامتها .

دعتنا إلى الجلوس وسألت "**تافرنر**" عما إذا كان هناك جديد فأجاب :

– نعم يا سيدتي ... ثبت أن الوفاة نجمت عن التسمم بمادة "**الإيزيرين**" .

فقالت بنفس الصوت الهادئ وهي مستغرقة في التفكير :

– إنها إذن جريمة قتل .. ألا يحتمل أن يكون الحادث قد وقع قضاء وقدرا .

– بالتأكيد .

– هل لي أن أرجوك بالترفق بزوجي أيها المفتش ؟ .. هذا النبأ سيثيره .. وهو شديد الحساسية وكان يحب أباه حبا جما .

– هل كانت علاقتك بأبيه طيبة يا سيدتي ؟

– كانت طيبة جدا . ثم أضافت بهدوء : ولكني لم أكن أحبه .

– لماذا ؟

– لم أكن أقر أهدافه . ولا وسائله للوصول إلى هذه الأهداف .

– والسيدة "**بريندا ليونيدس**" ؟

– "**بريندا**" ؟ لم أكن أراها كثيرا .

– هل تعتقدين بأنه يمكن أن تكون هناك علاقة ما بينها وبين "**لورانس براون**" .

– لا أعتقد ذلك .. ولو كانت هناك علاقة لما علمت بها. كانت نبرات صوتها توحي بأن الأمر لا يهمها .. ودخل "**روجر ليونيدس**" في هذه اللحظة كالعاصفة وقال :

– تأخرت قليلا؛ لأنني تلقيت محادثة تليفونية ... ماذا عندك من الأنباء أيها المفتش ؟ .. هل عرفتم كيف مات أبي ؟

– مات مسموما بمادة "**الإيزيرين**" ..

– يا إلهي ! .. إذن فإن تلك المرأة لم تستطع الانتظار ! .. لقد أنقذها من الوحل فكان جزاؤه منها القتل .. كلما فكرت في ...

– هل لديك من الأسباب ما يحملك على اتهامها ؟

فجرى بأصابع يديه في شعر رأسه وأجاب وهو يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابًا :

– أسباب ؟ .. إذا لم تكن هي فمن سواها ؟ .. إنني لم أثق بها قط ولم أشعر نحوها بأي عطف .. لا أحد منا يحبها .. لقد جمدنا في مكاننا ، أنا و"**فيليب**" يوم أنبأنا أبي بما فعل .. كان جنونا أن يتزوج في تلك السن . إن أبي كان رجلا فذا أيها المفتش .. وقد ظل يحتفظ وهو في السبعين بذكاء

ويقظة ابن الأربعين . إنني أدين له بكل مـا أملك في هذه الدنيـا .. ولـم يحدث قط أنه امتنع عن مساعدتي عند الضرورة . قال ذلك وتهالك على أحد المقاعد .. فوضعت زوجته يدها على كتفه بلطف وقالت :

– اهدأ وتمالك نفسك يا "**روجر**" ..

– كيف أهدأ حين أفكر في ...

– يجب علينا جميعا أن نحتفظ بهدوئنا يا "**روجر**" .. إن المفتش "**تافرنر**"، لا يبغي إلا مساعدتنا .. فنهض "**روجر**" من مقعده فجأة وصاح:

– هل تعلمين ماذا أريد أن أفعل ؟ .. أريد أن أخنق هذه المرأة بيدي .. لو كانت أمامي الآن لدققت عنقها .

– "**روجر**" ! .. كان صوتها حازما فنكس "**روجر**" رأسه وقال :

– معذرة أيتها العزيزة . ثم نظر إلينا وأردف :

– معذرة .. فقد استبد بي الغضب .. وغادر الغرفة مرة أخرى ، فشيعته "**كليمنسي**" بابتسامة غامضة وقالت :

– إنه على الرغم من صخبه وهياجه لا يؤذي ذبابة . فأجاب "**تافرنر**" في أدب إنه واثق من ذلك ، ثم ألقى عليها بضعة أسئلة فأجابته بدقة وإيجاز .. قالت عن تحركات "**روجر**" يوم وفاة أبيه إنه قضى ساعات الصباح في مقر إدارة الشركة المتحدة للمواد الغذائية بـ"**لندن**" ، وعاد بعد الظهر ، فاجتمع بأبيه فترة قصيرة كما اعتاد أن يفعل كل يوم، أما هي فقد ذهبت كالعادة إلى مقر عملها بمعهد "**لامبرت**" ولم تعد إلا في الساعة السادسة مساء .

– هل رأيت "**أرستيد ليونيدس**" في ذلك اليوم ؟

– لا ، رأيته آخر مرة في اليوم السابق ، حين تناولنا القهوة معه بعد العشاء

– ألم تريه يوم وفاته ؟

– نعم لم أره .. ولكنني ذهبت إلى شقته في ذلك اليوم للبحث عن غليون "روجر" ، ووجدت الغليون على مائدة في الردهة حيث نسيه "روجر" ، فلم أشأ أن أزعج العجوز .. لأنه اعتاد أن يغفو حوالي الساعة السادسة .

– متى علمت أن حاله قد ساء ؟

– جاءت "بريندا" وأنبأتنا .. كان ذلك حوالي الساعة السادسة والنصف .

كان "تافرنر" ينظر إلى "كليمنسي" طول الوقت ولا يحول عينيه عن وجهها... وأخيرا ألقى عليها بضعة أسئلة عن طبيعة عملها في معهد "لامبرت" ، فقالت إنها تقوم ببعض البحوث عن تحطيم الذرة .. وقبل أن ينصرف "تافرنر" ، طلب أن يلقي نظرة على الشقة ، فدهشت "كليمنسي" ولكنها أجابته إلى ما طلب .

كان المخدع بفراشه الصغير وستائره البيضاء يذكر الناظر بغرف النوم في الأديرة، والحمام لا يقل عنه تقشفا ، أما المطبخ فكان نظيفا جدا وقد نظم حتى يوفر ما يبذل فيه من جهد، ووصلنا إلى آخر باب في الشقة ففتحته "كليمنسي" وهي تقول :

– هنا مكتب زوجي . فتنهدت بارتياح؛ إذ أسعدني بعد جولتي في تلك الشقة المتواضعة التي يعبر مظهرها عن التقشف أن أجد نفسي أخيرا في غرفة تعكس شخصية صاحبها. كان المكتب مغطى بالأوراق . والغلايين القديمة مبعثرة بين الملفات، والجدران مزينة بصورة جماعية لطلاب ولاعبي كريكيت وعسكريين ، ولوحات بالألوان المائية تمثل المآذن وغروب الشمس ، والسفن الشراعية .. والغرفة في مجموعها تترك في نفس الزائر انطباعا بأنها لرجل يسعد الإنسان أن يتخذه صديقا . وأفسح "روجر" مكانا على مكتبه لكي يقدم لنا شرابا وقال :

– كنت بسبيل معالجة هذه الفوضى وتنظيم الأوراق . اعتذر "تافرنر"

وقال إنه يفضل ألا يتناول شرابا ، واستطرد "روجر" قائلا :

- أرجو المعذرة مرة أخرى عما بدر مني .. فإنني لم أتمالك نفسي ونظر حوله بخوف . ولكنه اطمأن حين لم ير "كليمنسي" وقال :

- إنها امرأة رائعة ! .. أنتما تعرفان بالتأكيد من أعني ... لقد ظلت طول هذه المحنة محتفظة بثباتها ورباطة جأشها .. وليس في استطاعتي أن أعبر عن مبلغ إعجابي بها .. إنها مرت بأيام عصيبة قبل أن تتزوج .. كان زوجها الأول شابا ممتازا ولكنه مريض بالسل الرئوي .. وكان يقوم بأبحاث علمية مهمة عن التبلور، ويعمل كثيرا ويربح قليلا ولكنه رفض أن يترك معمله .. فساعدته بكل ما تملك من قوة ، وبذلت بغير حساب . وأنهكت قواها لتجنبه التعب والألم .. وهي تعلم عن يقين أنه يسير إلى القبر بخطى حثيثة .. ولم تشك ولم تتذمر .. وظلت إلى آخر لحظة تقول له إنها سعيدة .. ولما مات انهارت تماما ..

ولما تزوجنا .. رجوتها أن تكف عن العمل وتستريح ، ولكننا كنا في حالة حرب .. وكان شعورها بواجبها الوطني قويا فلم تستجب إلى رجائي .. واستمرت في عملها حتى الآن .. إنها زوجة عظيمة .. وطالما قلت لنفسي : إن يوم لقائي بها كان بغير شك أسعد يوم في حياتي ، إنني على استعداد لأن أفعل أي شيء من أجلها .

فقال "تافرنر" عبارة لبقة تناسب الموقف ، ثم عرج بمهارة على موضوع الزيارة وسأله :

- كيف علمت أن أباك في حالة سيئة ؟

- جاءت "بريندا" وأنبأتني فأسرعت إلى أبي وكنت قد تركته منذ نحو نصف ساعة في أحسن حال . فوجدته يهذي ووجهه أزرق ، فانطلقت إلى أخي الذي اتصل بالطبيب في الحال .. ولم يكن في استطاعتي عمل شيء .. وغني عن

الذكـر أنه لم يتطرق إلى أذهاننا في ذلك الوقت أن في الأمـر مـا يبـعث على الارتياب . وبعد لحظة كنت أنا و "تافرنر" نغادر الشقة فقال لي :

– ليس بين الأخوين أي تشابه . ثم أردف بعد قليل :

– يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن هذا الرجل لا يمكن أن يسمم أحدا . . أما زوجته فإنها من الطراز الذي لا يصده عن أهدافه أي اعتبار . فقلت :

– ولكنني لا أظن أنها تقتل إنسانا لمجرد أنها تختلف معه في الرأي . . صحيح أنها اعترفت بأنها تبغض العجوز . ولكن كم عدد الجرائم التي ترتكب بسبب البغض وحده ؟ فأجاب "تافرنر" :

– عددها قليل . . أنا شخصيا لم أصادف جريمة ارتكبت لهذا السبب . . ولذلك مازلت أصر على أن المتهمة الرئيسية هي "بريندا" . . والله وحده يعلم ما إذا كنا سنستطيع العثور على دليل يدينها .

- 8 -

فتحت إحدى الوصيفات الباب المؤدي إلى الجناح الآخر ونظرت إلى "تافرنر" بنظرة تجمع بين الخوف والاحتقار وسألته :

– هل تريد مقابلة سيدتي ؟

– نعم . فقادتنا إلى قاعة استقبال فسيحة واختفت . .

كان أثاث القاعة يمتاز بألوانه المرحة . وقد وضع على الجدار فوق المدفأة صورة لفتت نظري . . ليس لأنها بريشة أحد كبار الفنانين فقط ، ولكن لأنها تمثل شخصا غير عادي . . تمثل عجوزا ثاقب النظرات ، يشع وجهه نشاطا وحيوية . قال "تافرنر" :

– هذه اللوحة رسمها الفنان الكبير "أوجستوس جون" ، كانت للعجوز

شخصيته المميزة .. أليس كذلك ؟ ..

– بلى .كانت إجابتي المختصرة لا تعبر تعبيرا كافيا عما يدور بخلدي ..
فلقد فهمت الآن فقط وأنا أتأمل الصورة ماذا عنيت "**أديث دي هافيلاند**" حين قالت : " إن البيت دون العجوز يبدو خاويا" . قال "**تافرنر**" :

– وها هي ذي صورة زوجته الأولى بريشة الفنان "**سارجنت**" . فاقتربت لأتأمل الصورة .كانت موضوعة بين نافذتين . وتعبر عن الخشونة التي تتميز بها لوحات "**سارجنت**" . ولكنها كانت صورة جيدة لسيدة من أغنياء الريف، كانت جميلة ولكن ليس ثمة ما يميزها ... ولا يمكن أن يتصورها الإنسان زوجة لهذا الطاغية القصير القامة الذي تطل صورته من فوق المدفأة .
دخل الضابط "**لام**" في تلك اللحظة وقال :

– لقد عرفت من استجواب الخدم .. أنهم لا يعرفون شيئا .
ثم جلس في أحد الأركان وأخرج ورقة وقلما ، واستعد لتسجيل ما سوف يدور من حديث بين المفتش والزوجة الثانية لـ"**أرستيد**" . وفتح الباب ، ودخلت "**بريندا**" ، ورأيت أمامي سيدة صغيرة الجسم ، رقيقة ، قد صبغت شفتيها وصففت شعرها الأسود ببساطة وبلا تعقيد ، وعلى الرغم من ذلك خيل إليّ أنها كانت تبكي قبل قدومها .
كانت ترتدي ثوب حداد يلائمها تماما ، وتزين صدرها بعقد من اللؤلؤ .. ويدها اليسرى بخاتم من الزمرد ، ويدها اليمنى بخاتم آخر من الياقوت . لاحظت كل ذلك بسرعة ، ولاحظت أيضا أنها ترتعد خوفا . حياها "**تافرنر**" وقال إنه آسف لأن يزعجها مرة أخرى ، فأجابته بصوت خافت:

– أظن أن لا سبيل لك غير ذلك .. قال :

– لا أحسبني يا سيدتي أحتاج إلى أن أقول لك : إن من حقك الاستعانة بمحاميك إذا شئت .

– أنا لا أحب السيد "**جيتسكيل**" .. ولا أريد أن أراه .

– بوسعك الاستعانة بأي محام آخر يقع عليه اختيارك .

– وهل ذلك ضروري .. أنا لا أحب رجال القانون .. إنهم يربكونني .

فقال "تافرنر" وعلى شفتيه ابتسامة لا معنى لها :

– على رسلك .. هل نبدأ ؟ فجلست على أحد المقاعد وسألت :

– هل وجدتم شيئا ؟ وراحت أصابعها تعبث بقماش ثوبها بحركة عصبية .

قال " **تافرنر**" :

– بوسعنا أن نؤكد بصفة قاطعة أن زوجك مات مسموما بمادة "**الإيزيرين**" .

– تعني أنه قتل بالمادة التي يضع منها قطرات في عينيه ؟

– يبدو أنك حقنته آخر مرة بـ"**الإيزيرين**" بدلا من "**الأنسولين**" .

– ولكني لم أكن أعلم ذلك أيها المفتش .. أقسم لك أنني لم أكن أعلم .

– إذن لا بد أن يكون أحدهم تعمد استبدال "**الإيزيرين**" بـ"**الأنسولين**" .

– هل تعتقد أن ذلك حدث عمدا ؟ .. أم خطأ ؟ .. أم على سبيل الدعابة؟

– نحن لا نعتقد بأنها كانت دعابة يا سيدتي ..

– إذن لا بد أنه أحد الخدم .. إنني لا أرى تفسيرا آخر ..

– هل أنت واثقة يا سيدتي ؟ .. فكري جيدا .. ألم يكن هناك من يحقد على السيد "**ليونيدس**" ؟ .. ألم يحدث خلاف بينه وبين أحد .

– لا أظن .

– سبق أن قلت إنك ذهبت إلى السينما بعد ظهر ذلك اليوم ..

– نعم .. وقد عدت حوالي الساعة السادسة والنصف ، وهو موعد الحقنة .. ولكني ما كدت أحقنه كالعادة حتى فر لونه وأصيب بانهيار فذعرت وأسرعت إلى "روجر" .. إنني قصصت عليك كل ذلك فهل يجب أن

أكرره.. ارتفع صوتها غضبا وضيقا وهي تنطق بالعبارة الأخيرة، فقال "**تافرنر**" :

– أنا آسف يا سيدتي .. هل أستطيع مقابلة السيد "**براون**" ؟

– تعني "**لورانس**" ؟ . . لماذا ؟ إنه لا يعرف شيئا على الإطلاق .

– أريد مقابلته على كل حال . فنظرت إليه بارتياب وأجابت :

– إنه في قاعة الدرس يلقي على "**أوستاش**" درسا في اللغة اللاتينية .. هل أدعوه إلى هنا ؟

– لا .. أفضل أن أذهب إليه . غادر "**تافرنر**" الغرفة ، وتبعته مع "**لام**" . وسرنا في دهليز انتهى بنا إلى غرفة فسيحة تطل على الحديقة وهناك رأينا رجلا يناهز الثلاثين ، يجلس جنبا إلى جنب مع مراهق في نحو السادسة عشرة من عمره .

رفع الاثنان رأسيهما حينما دخلنا ، واتجهت عينا "**أوستاش**" إليَّ ، بينما استقرت عينا "**لورانس براون** " على "**تافرنر**" .. ولم أر في عيني إنسان من الجزع مثلما رأيته في عيني هذا الشاب في تلك اللحظة .. كان يبدو وكأنه يوشك أن يموت خوفا . نهض واقفا وقال :

– طاب يومك أيها المفتش ..

– طاب يومك .. هل أستطيع أن أقول لك كلمتين ؟

– بلا شك يا سيدي . فنهض "**أوستاش**" وقال بصوت رقيق :

– هل أغادر الغرفة أيها المفتش ؟ فقال "**لورانس**":

– سنستأنف الدراسة بعد قليل يا "**أوستاش**" . فانصرف الفتى وهو يمشي ببطء . ويعرج في مشيته . قال "**تافرنر**" :

– لقد أثبتت التحاليل حقيقة مهمة يا سيد "**براون**" .. هي أن السيد "**ليونيدس**" مات بمادة "**الإيزيرين**" ..

– إذن فقد مات مسموما حقا ؟ .. كنت أرجو أن ...

– نعم .. لقد استبدل أحدهم "**الإيزيرين**" بمادة "**الأنسولين**" التي كان يحقن بها.

– لا أستطيع أن أتصور ذلك ! هذا أمر لا يمكن تصوره :

– السؤال الذي أريد أن ألقيه عليك هو : من صاحب المصلحة في قتل السيد "**ليونيدس**" ؟

– لا أحد .. لا أحد إطلاقا ..

– بهذه المناسبة ! .. ألا تريد أن يشترك محاميك في هذا الحديث ؟

– ليس لي محام .. ولا أريد أن يكون لي .. إنني لا أخفي شيئا .

– هل تعلم أننا سنسجل أقوالك ؟

– إنني بريء .. أقسم لك إنني بريء .

– أنا لم أقل شيئا يوحي بعكس ذلك . وصمت "**تافرنر**" قليلا ثم قال :

– كانت السيدة "**ليونيدس**" أصغر كثيرا من زوجها .. أليس كذلك ؟

– أظن ذلك .. أعني .. بلى ..

– لابد أنها كانت تشعر بالوحدة في بعض الأحيان . فمر "**لورانس**" بلسانه على شفتيه الجافتين ولم يجب .. واستطرد "**تافرنر**" قائلا :

– لا شك في أنه كان من بواعث ارتياحها أن تجد على مقربة منها شابا في مثل سنها؟

– أبدا .. أعني .. لست أعلم ..

– أما أنا فيخيل إلي أنه من الطبيعي جدا أن تتوثق أواصر الصداقة بينكما. فقال "**لورانس**" محتجا بقوة :

– أنا أعرف جيدا ما يدور بخلدك .. ولكنك مخطئ . إن السيدة "**ليونيدس**" تعطف علي وأنا لا أكن لها إلا الاحترام . ولم أشعر نحوها قط بأية عاطفة أخرى .. وهذا الذي تلمح إليه فظيع للغاية .. ولست أتصور

أنني أستطيع أن أقتل أحدا بالسم أو بسواه .. إن عقيدتي الدينية تمنعني من أن أقتل. وهذا هو السبب في أنني لم أنخرط في سلك الجندية ..

وبدلا من حمل السلاح عملت وقّادا بالمستشفيات ، كنت أشعل المدافئ والسخانات وهو عمل مضن لم أقو على مواصلته فسمحت لي السلطات بالاشتغال بالتدريس . وأنا هنا أبذل قصارى جهدي مع "**أوستاش**" و"**جوزيفين**" .. الأخيرة تلميذة ذكية جدا لكنها متعبة .. والجميع في هذا البيت يعاملونني بكل رفق .. وهأنتذا تأتي الآن وتتهمني بارتكاب جريمة قتل! فانبسطت أسارير "**تافرنر**" قليلا وقال :

– أنا لم أتهمك .

– ولكنك تظن ذلك .. الجميع هنا يظنون ذلك .. إنني أقرأ في عينيك .. ولكني لست في حالة تساعدني على الكلام .. إنني أشعر بوعكة .. وأسرع إلى خارج الغرفة .. فتحول "**تافرنر**" إلي ببطء وقال :

– ما انطباعاتك ؟

– إنه في أشد حالات الخوف .

– أعلم ذلك .. ولكن هل هو القاتل ؟ فقال "**لام**" :

– إذا أردت رأيي فإنه ليس قاتلا .. ولا يمكن أن تواتيه القدرة على القتل .

– ذلك رأيي أيضا .. فهو لا يستطيع أن يقتل .. بل ولا يستطيع أن يصوب مسدسا .. ولكن الجريمة التي نحن بصددها لا تكلف القاتل جهدا .. بحسبه أن يستبدل قنينة بأخرى لكي يساعد عجوزا متهدما على الخروج من هذه الدنيا بأقل قدر من الألم . فقال "**لام**" :

– كنوع من القتل بدافع الشفقة .

– وبعد فترة انتظار معقولة .. يقترن بالأرملة الشابة التي تملك نحو مائة ألف جنية وترث مبلغا مماثلا .. عدا ما لديها من جواهر صمت "**تافرنر**"

قليلا ثم قال:

– كل هذا مجرد ظن .. لقد تعمدت أن ألقي الذعر في قلبه ، ويبدو أنني نجحت .. ولكن ذلك لا يثبت شيئا .. فالإنسان يمكن أن يخاف وهو بريء.. والواقع أنني لا أرتاب فيه بقدر ما أرتاب في المرأة.. ولكني مازلت أتساءل .. لماذا لم تتخلص من القنينة .. أو على الأقل لماذا لم تغسلها لإزالة أثر "**الإيزيرين**" بها؟.. ثم التفت إلى "**لام**" وسأله :

– ألم يلاحظ الخدم وجود صلة بين سيدتهم و"**لورانس**" ؟

– قالت لي الوصيفة : إنها واثقة من وجود عاطفة متبادلة بينهما .

– ما الذي جعلها تعتقد ذلك ؟

– نظراته إلى السيدة وهي تقدم له أقداح القهوة .

– وهل هذا دليل يقدم للمحكمة ؟ .. ألا يوجد شيء آخر ؟

– لو كانت بينهما صلة لما غاب عن الخدم ملاحظتها .. إنني أكاد أقتنع بأن هذه الصلة لا وجود لها . ثم التفت إلي وقال :

– اذهب إليها الآن واستدرجها إلى الحديث فإنني أود أن أعرف انطباعاتك عنها.

فخرجت وأنا أشعر بقليل من الحماس وكثير من الفضول .

- 9 -

وجدت "**بريندا ليونيدس**" جالسة حيث تركتها .. سألتني ساعة وقع بصرها علي :

– أين المفتش ؟ .. ألن يعود ؟

– ليس الآن .

– من أنت ؟ ..هذا هو السؤال الذي كنت أتوقعه منذ الصباح وقد كان جوابي أقرب ما يكون إلى الحقيقة ..

– إنني أعمل مع البوليس ولكني صديق للأسرة .

– الأسرة ؟ أولئك الوحوش ؟ .. إنني أمقتهم جميعا .. نظرت إلي ، وشفتاها ترتجفان واستطردت قائلة : لماذا كان ينبغي ألا أتزوج أباهم؟ ولماذا ضايقهم هذا الزواج ؟

إنهم جميعا أثرياء إلى أبعد حدود الثراء من المال الذي أخذوه من أبيهم والذي ما كانوا يستطيعون أن يربحوه بكدهم وعرقهم ! .. ثم ألم يكن من حقه أن يتزوج على الرغم من تقدمه في السن ؟ .. على أنه لم يكن عجوزا بحال .. إن الشيخوخة أنواع.. وقد كنت أحبه .. ونظرت إلي في تحد واستطردت قائلة :

– نعم .. كنت أحبه .. ولعلك لا تصدق ذلك ، ولكنها الحقيقة .. كان هناك رجال كثيرون أستطيع أن أختار من بينهم زوجا لي .. ولكني كنت أريد بيتا .. وشخصا يدللني ويقول لي كلاما لطيفا ... وقد قال لي "أرستيد" هذا الكلام ... وعرف كيف يسليني ويضحكني ... كلا .. إن موته لم يسرني .. إنني جد حزينة .. واعتدلت في جلستها وارتسمت ابتسامة غريبة على ركن فمها وقالت :

– لقد كنت سعيدة هنا .. كنت أشعر بالطمأنينة والأمان ، وأذهب إلى أشهر صانعي الثياب ، وكان "أرستيد" يقدم لي أجمل الهدايا وأثمنها .. ونظرت إلى الخواتيم التي تزين يديها وقالت :

– أي ذنب جنيت ؟ .. كنت لطيفة معه وقد أسعدته ... هل تدري كيف عرفته ؟ .. لم تنتظر إجابتي ومضت تقول :

– كنت أعمل في أحد المطاعم ، فجاء وطلب بيضا مسلوقا ، وعندما

أحضرت له ما طلب .. كانت الدموع في عيني فقال لي: "اجلسي .. وحدثيني... ما خطبك.." فأجبته : "مستحيل .. لو فعلت ذلك لطردوني فقال: "سوف يدهشني أن يطردوك :. لأنني صاحب هذا المطعم " فنظرت إليه، ووجدته قزما عجوزا لا يساوي شيئا .. ولكني اكتشفت فيما بعد أنه صاحب سلطة ليست لسواه .. وباختصار .. رويت له قصتي .. ومن المحتمل أنك تعرفها . إذ لا شك في أنهم حدثوك عني .. وقالوا لك ، إنني مخلوقة تافهة .. ولكنهم كاذبون .. فإنني على جانب كبير من الثقافة وكان أبي يملك متجرا كبيرا .. ولم يحدث قط أنني تسكعت مع الفتيان ولكن " تيري" كان يختلف عن غيره من الشباب .

كان من أصل أيرلندي ، وقد سافر مع الجيش إلى مكان بعيد ولم يكتب إلي وانقطعت أنباؤه . ومن تحصيل الحاصل أن أقول لك إنني كنت قد تورطت معه .. وأصبحت في مركز أية فتاة تخلى عنها عشيقها .

سمع "أرستيد" قصتي .. وكان رائعا . قال لي : إن كل شيء يمكن إصلاحه.. وإنه يشعر بوحدة شديدة ، وإننا سنتزوج دون انتظار .. ولم أصدق أذني .. وخيل إلي أنني أحلم ، وعلمت على الأثر أنه السيد "ليونيدس" المشهور الذي يملك كثيرا من المطاعم والملاهي والأندية الليلية...

وبعد فترة وجيزة تزوجنا في إحدى الكنائس الصغيرة ، ورحلنا إلى أوروبا لقضاء شهر العسل .

– والطفل ...؟

– لم يكن هناك طفل .. كنت مخطئة . وابتسمت واستطردت قائلة :

– أقسمت أن أكون له خير زوجة .. وبررت بقسمي .. قدمت له الطعام الذي يريده .. وارتديت الثياب التي تعجبه . وفعلت كل ما يمكنني

لإسعاده.. وكان سعيدا فعلا ، ولكننا لم نستطع قط التخلص من أفراد أسرته.. أولئك الإمعات التوافه الذين يعيشون على حسابه..

إليك مثلا تلك العجوز الآنسة "**دي هافيلاند**"..أما كان يجب عليها أن ترحل؟.. قلت ذلك لـ"أرستيد" فأجاب : "إنها تقيم هنا منذ وقت طويل.. وتعتبر هذا البيت بيتها" . والحقيقة أنه كان يريدهم جميعا حوله وتحت رحمته . وقد عاملوني بقسوة .. ولكنه كان يتظاهر بأنه لا يلاحظ شيئا..كان "روجر" يكرهني بدافع الغيرة والحسد ، وكان "**فيليب**" يشمخ علي بأنفه صلفا وغرورا .. وهم جميعا يريدون الآن أن يلصقوا بي تهمة قتل زوجي.. فهل تصدقني إذا قلت لك إنها تهمة كاذبة ؟ .. قل إنك تصدقني... أضرع إليك .

*****

كان في صوتها وفي نظرتها إليَّ شيء جعلني أشعر نحوها بالشفقة والعطف.. حتى كدت أدين السلوك اللا إنساني لتلك الأسرة التي تحاول أن تلصق جريمة القتل بهذه المرأة المسكينة التي لا حول لها ولا قوة . قالت :

– في اعتقادهم أنني إذا لم أكن أنا التي قتلته ، فالقاتل هو "**لورانس**"

– حدثيني عنه قليلا .

– كنت دائما أرثي له ، فهو معتل الصحة ، ولم يشترك في الحرب ليس لأنه جبان ، بل لأنه شديد الحساسية . وقد بذلت قصارى جهدي لكي أجعله يشعر بالسعادة هنا .. إنه يشرف على تثقيف تلميذين فظيعين .. "**أوستاش**" .. الذي لا يدع فرصة تمر دون أن يسخر منه ويحاول إذلاله .. و"**جوزيفين**" هل رأيتها؟

– لا ..

– إنهـا تذكـرني بالحـية .. وهـي غريبـة الأطوار .. حـتى أشـعر أحـيانا بالخوف منها. ولكن **"جوزيفين"** لم تكن تهمني .. فعدت إلى الحديث عن **"لورانس"** . وسألتها :-

– من هو ؟ .. ومن أين جاء ؟

– إنه لا شيء .. مثلي .. فماذا نستطيع أن نفعل ضدهم .. خصوصاً أن المفتش في صفهم ..

– لا ينبغي أن تنظري إلى الأمور على هذا النحو .

– لماذا لا يكون القاتل واحدا منهم ؟ .. أو شخصا من الخارج ؟ أو أحد الخدم ؟

– يجب أن نفكر في الدافع إلى الجريمة .

– الدافع ؟ .. وما هو الدافع بالنسبة إلي .. أو إلى **"لورانس"** ؟ فقلت بشيء من الحرج :

– يمكن أن يقال إن بينكما صلة عاطفية وإنك تأملين الاقتران به يوما ما. فقالت بحدة :

– كيف يجرؤون على مثل هذا التفكير ؟ .. لم يحدث قط أن دار بيني وبينه حديث يدعوهم إلى هذا الظن .. كنت لطيفة معه؛ لأنني كنت أتألم له .. نحن صديقان ولا شيء غير ذلك ، هل تصدقني ؟

صدقتها .. وصدقت أنهما كانا مجرد صديقين كما قالت ، ولكنني شعرت في قرارة نفسي بأنها مولعة به ... ربما دون أن تدري .

*****

انطلقت لمقابلة **"صوفيا"** وهذه الفكرة في ذهني .. وكنت في طريقي إلى قاعة الاستقبال حين رأيتها تطل من أحد الأبواب . قالت لي :

– إنني أساعد **"ناني"** في إعداد الطعام . فهممت بمرافقتها إلى المطبخ ،

ولكنها أمسكت بيدي وقادتني إلى قاعة الاستقبال ، ولم يكن بها أحد . سألتني :

– هل قابلت "بريندا" ؟ .. ما رأيك فيها ؟

– بصراحة .. أنا أرثي لها . فنظرت إلي باحتقار وقالت :

– أرى أنها طوتك تحت جناحها .

– الواقع أنني فهمت وجهة نظرها ..

– ماذا تعني ؟

– أجيبيني بصراحة يا "صوفيا" .. هل حدث يوما منذ جاءت "بريندا" إلى هذا البيت أن احتضنتها الأسرة أو عاملتها برفق على الأقل ؟

– لا .. لم يحدث .. ولكن لماذا كان يجب أن نترفق بها ؟ يبدو من كلامك يا "تشارلس" أن "بريندا" أقنعتك بتمثيلها ..

– الحق أنني لا أعرف ماذا دهاك يا "صوفيا" ..

– دهاني أنني صريحة وأقول كل ما يدور بخلدي .. قلت إنك فهمت وجهة نظر "بريندا" .. حسنا .. دعني أوضح وجهة نظري .. أنا لا أحب الفتيات اللائي يخترعن القصص لإثارة شفقة العجائز بهدف الاقتران بهم .. إن لي كل الحق في أن أمقت المغامرات اللائي من هذا الطراز .. ولست أرى سببا يدعوني إلى التظاهر بحبهن .

– هل تعتقدين أنها كذبت على جدك ؟

– بشأن الطفل ؟ .. ربما ..

– ألا تغفرين لها أنها استولت على جدك ؟ فانفجرت ضاحكة وقالت :

– أؤكد لك أنها لم تستول عليه .. لا أحد استطاع أن يستولي عليه .. لقد أراد "بريندا" .. وظفر بها .. كان يعرف جيدا ما هو فاعل .. فسارت الأمور وفقا لخطته .. وكان الزواج من وجهة نظره عملية ناجحة مثل جميع

عملياته .

– وهل كان من عملياته الناجحة اختيار "**لورانس براون**" مدرسا للأولاد ؟

ولاحظت "**صوفيا**" ما في سؤالي من سخرية فقطبت ما بين حاجبيها وقالت :

– ولم لا .. لعله أراد أن تكون "**بريندا**" سعيدة وألا تشعر بالملل ، ولعله قال لنفسه : إن الثياب والجواهر لا تكفي لإسعادها ويجب أن يكون في حياتها شيء من الرومانسية التي لا خطر منها . ومن المحتمل أن يكون قد رأى أن رجلا خجولا من طراز "**لورانس براون** " هو الشخص المطلوب كطرف في علاقة مع "**بريندا**" تجمع بين الصداقة والحب ، وتمنع "**بريندا**" من التورط في مغامرات فعلية مع آخرين في الخارج ... لقد كان جدي بارعا في مثل هذه التدابير . طبيعي أنه لم يكن يتوقع أن ينتهي هذا التدبير بجريمة .. وصمتت قليلا ثم قالت :

– إن معرفتي ببراعة جدي تجعلني أكاد أرتاب في أن "**بريندا**" هي التي قتلته؛ إذ لو أنها دبرت لارتكاب الجريمة بنفسها أو بالاشتراك مع "**لورانس**" ، لعلم جدي بذلك .

– وهذا يعيدنا إلى نقطة البداية ..

– لندع الحديث في هذا الموضوع يا "**تشارلس**" .. سأذهب الآن لإعداد الطعام.

– ألا تريدين أن أساعدك ؟ ..

– بل ابق هنا .. إن "**ناني**" تجن إذا رأت رجلا في المطبخ . قالت ذلك وغادرت الغرفة ، فتهالكت على أحد المقاعد .. وانصرفت إلى التفكير .

*****

لقد عرفت وجهة نظر "**بريندا**" .. وعرفت كذلك وجهة نظر "**صوفيا**" .. التي هي أيضا وجهة نظر الأسرة كلها ، وخلصت مما سمعت أن آل

"ليونيدس" لا يغفرون للأجنبي الذي يندس بينهم بوسائل يعتقدون أنها ملتوية ..

ولكن للموضوع نواحي إنسانية يصرون جميعا على تجاهلها ..

ذلك أنهم كانوا طوال حياتهم في رغد من العيش . فهم لا يفهمون معنى الطموح عند الذين لم يملكوا في حياتهم شيئا ..

وقد أرادت "بريندا" أن تظفر بكل ما حرمت منه : المال ، والترف ، والأمان والبيت .. وكان لها ما أرادت .. في مقابل ما بذلته لإسعاد زوجها العجوز ..

لقد شعرت بالعطف عليها حين سمعت قصتها .. فهل يجب الآن أن أسترد هذا العطف وأنكره عليها ؟.. إنها مشكلة معقدة ذات وجهين .. فأيهما أصح؟

*****

وكنت قد قضيت ليلة مسهدة واستيقظت مبكرا في الصباح لأرافق "تافرنر" .. وكان جو قاعة الاستقبال دافئا معطرا ، والمقعد الذي أجلس عليه وثيرا .. فأغمضت عيني وما لبثت أن استغرقت في نوم عميق .

*****

- 10 -

استيقظت من نومي في هدوء حتى كدت لا أصدق أنني نمت ، ورأيت فوق رأسي بقعة بيضاء خيل إلي أنها لشبح في الفضاء وانقضت بضع ثوان قبل أن أستجمع حواسي وأدرك أن هذه البقعة البيضاء لم تكن إلا وجها

مستديرا لفتاة صغيرة نحيلة لها شعر كستنائي معقود خلف رأسها وعينان سوداوان جاحظتان . قالت الفتاة وهي تنظر إلي بحدة :

– طاب يومك . فغمغمت :

– طاب يومك . قالت :

– أنا أدعى "**جوزيفين**" . توقعت حين رأيتها أنها "**جوزيفين**" .. شقيقة "**صوفيا**" . كانت في نحو الحادية عشرة من عمرها ، ودميمة جدا ، وتشبه جدها شبها عظيما . وخيل إلي أنها ربما قد ورثت ذكاءه أيضا . قالت :

– أنت صديق "**صوفيا**" .. أليس كذلك ؟ فلم أجب . قالت :

– ولكنك جئت مع المفتش "**تافرنر**" .. لماذا ؟

– إنه أحد أصدقائي .

– أحقا ؟ .. إنه لا يعجبني ... ولذلك لن أقول له شيئا .

– وماذا كان بودك أن تقولي له ؟

– إنني أعرف أشياء كثيرة .. وجلست على طرف أحد المقاعد ، واستمرت تتفرس في وجهي بإلحاح حتى بدأت أشعر بالضيق . قالت :

– إن جدي قتل .. هل تعلم ذلك ؟

– نعم .

– مات مسموما بمادة "**الإيزيرين**" . ونطقت بكلمة "**إيزيرين**" ببطء ووضوح ثم استطردت قائلة : إنها مسألة مثيرة .. فما قولك ؟

– أعتقد ذلك .

– إنها أثارتني .. أنا و"**أوستاش**" . فنحن نحب القصص البوليسية . وطالما تمنيت أن أصبح شرطيا سريا . وها قد تحققت أمنيتي . أنا الآن أبحث عن أدلة . كان كل شيء فيها يثير النفور . قالت :

– ذلك الرجل الذي جاء مع المفتش "**تافرنر**" .. هل هو أيضا من رجال

الشرطة؟.. يقولون في القصص البوليسية : إن الشرطي إذا ارتدى الملابس المدنية يمكن معرفته من حذائه الضخم .. ولكن حذاء هذا الرجل من النوع اللامع الجميل.

- كل شيء يمكن أن يتغير يا "**جوزيفين**" .. حتى أساليب رجال الشرطة .

فقالت بلهجة جدية :

- نعم .. كل شيء يمكن أن يتغير .. وسوف يحدث تغيير هنا أيضا؛ إذ يحتمل أن نذهب للإقامة في "**لندن**" . كانت أمي تتمنى ذلك منذ وقت طويل. أما أبي فتستوي عنده الإقامة في أي مكان مادامت كتبه على مقربة منه.. وفيما مضى لم يكن في استطاعتك الانتقال إلى "**لندن**" ؛ لأن أبي خسر مبالغ طائلة في "**جيزابيل**" .

- "**جيزابيل**" ؟

- نعم .. هل شهدتها ؟

- هل هي مسرحية ؟ .. لا ، إنني لم أشهدها ؛ لأنني لم أكن في "**إنجلترا**" .

- إنها لم تمثل طويلا .. ويمكن أن يقال إنها سقطت .. وفي اعتقادي أن أمي لا تصلح لدور "**جيزابيل**" ، فما رأيك أنت ؟

وكنت قد رأيت "**ماجدا**" في غلالة رقيقة ، ثم رأيتها مرة أخرى في "**تايير**" أنيق.. ولم أجد في المرتين ما يذكرني بـ "**جيزابيل**" .. ولكني رأيت من الحكمة أن أجيب "**جوزيفين**" بأنني لا أستطيع أن أبدي رأيا في هذا الموضوع . فقالت :

- كان من رأي جدي دائما أن المسرحية لن تحقق ربحا ، وقال إنه لا يمكن أن يجازف بتمويل دراما دينية؛ لأن الجمهور لا يقبل على هذا النوع من المسرحيات.. ولكن أمي كانت مفتونة بدورها .. على أن المسرحية لم

تعجبني؛ لأنها قدمت "**جيزابيل**" في صورة امرأة شريرة ، خلافا لما ورد في الكتاب المقدس .. ولكن النهاية لم تكن رديئة .. فقد ألقوا بـ"**جيزابيل**" من النافذة .. ومما يدعو للأسف أنه لم تكن هناك كلاب تلتهمها .. وقد قالت أمي إنه لم يكن في استطاعتهم تقديم الكلاب على خشبة المسرح .. ولكنني أعتقد أنه كان بوسعهم استخدام كلاب مدربة .. ثم راحت تردد ما جاء في الكتاب المقدس بهذا الصدد :

"والتهمت الكلاب جسدها كله فيما عدا راحة يدها .. "

– لماذا لم تلتهم الكلاب راحة يدها ؟

– الحق أنني لا أعلم .

– لابد أنها كانت كلابا ذات ذوق خاص .. إن كلابنا تأكل كل شيء .

وراحت تفكر في هذا السر ، فقلت لكي أواصل الحديث معها :

– يؤسفني أن المسرحية سقطت .

– كانت أمي تقرأ ما كتبه النقاد عن المسرحية فتبكي أو تثور غضبا ، وبلغ غضبها ذات صباح أنها قذفت بصحفة الطعام في وجه وصيفتها "**جلاديس**" .. وقد ضحكت يومئذ حتى دمعت عيناي .

– يخيل إلي أنك تحبين المواقف الدرامية .

– هل تعرف أنهم قاموا بتشريح جثة جدي لمعرفة سبب وفاته ؟

– نعم .. هل حزنت يا "**جوزيفين**" ؟

– لا .. لم أكن أحبه كثيرا .. فهو الذي منعني من تعلم رقصات الباليه .

– هل كنت تريدين تعلم الرقص ؟

– نعم .. وقد وافقت أمي .. ووافق أبي أيضا، ولكن جدي قال إنني لن أصلح لشيء . وهزت كتفيها ، وقالت لتغير مجرى الحديث ؟

– هل يعجبك بيتنا ؟

– لست واثقا ذلك . من المحتمل أن يباع .. إلا إذا أصرت "بريندا" على البقاء فيه ..

ومن المحتمل جدا كذلك أن يعدل العم "روجر" والعمة "كليمنسي" الآن عن الرحلة التي كانا يعتزمان القيام بها .

– هل كانا يعتزمان القيام برحلة ؟

– نعم، كانا يعتزمان السفر بالطائرة يوم الثلاثاء إلى مكان ما في "أوروبا" .. بل وقد ابتاعت العمة "كليمنسي" فعلا حقيبة صغيرة جميلة من تلك الحقائب الخفيفة التي تستخدم للسفر بالطائرات .

– إنني لم أسمع أي حديث عن هذه الرحلة .

– لا أحد يعلم بأمرها .. كان مقررا أن تظل سرا لا يذاع إلا بعد رحيلهما، وكان في نيتهما أن يكتبا بشأنها رسالة لجدي .

– ولكن لماذا سيعدلان عن الرحلة ؟ .. هل تعرفين السبب ؟ فنظرت إلي بخبث وقالت :

– أظن أنني أعرف .. أنا لست على يقين ولكن يخيل إلي أن العم "روجر" ارتكب بعض الاختلاسات .

– لماذا تقولين ذلك ؟ .. فاقتربت مني وقالت بهمس :

– في يوم وفاة جدي ، ذهب إليه العم "روجر" في غرفته ومكث معه وقتا طويلا تحدثا خلاله كثيرا ، واتهم العم "روجر" نفسه بالضعف والغباء وقال إنه لا يستحق الثقة التي وضعها جدي فيه . فنظرت إليها بشيء من القلق وقلت لها :

– ألم يقل لك أحد يا "جوزيفين" إن التنصّت وراء الأبواب لا يتفق مع الخلق الكريم ؟ .. فابتسمت وأجابت :

– بلى .. ولكن كيف يعرف الإنسان حقائق الأمور إذا لم يسترق السمع

وراء الأبواب ؟ .. سل المفتش "**تافرنر**" يجيبك بأنه لا يجد غضاضة في ذلك. ولم تدع لي فرصة للكلام واستطردت قائلة :

– وإذا لم يكن "**تافرنر**" يسترق السمع بنفسه ، فإن زميله ذا الحذاء اللامع يفعل ذلك .. كلاهما يبحثان في كل مكان .. يفتحان الأدراج ويقرآن الرسائل حتى يعرفا أسرار الجميع .. ولكنهما ليسا من الذكاء؛ إذ لم يعرفا أين يجب أن يبحثا .. أنا و"**أوستاش**" نعرف أشياء كثيرة .. وأنا أعرف أكثر ولكنني لا أطلعه على معلوماتي؛ لأنه يزعم أن النساء لا يصلحن لعمل الشرطة السري .. وأنا أعتقد غير ذلك ، ولسوف أسجل معلوماتي في دفتر أقدمه لرجال الشرطة بعد أن يعترفوا بعجزهم وأقول لهم : إنني أعرف المجرم .

– هل تقرئين الكثير من القصص البوليسية يا "**جوزيفين**" ؟

– أقرأ المئات ..

– وتظنين أنك تعرفين من قتل جدك ؟

– لدي فكرة لم تنضج بعد؛ إذ إنني مازلت أفتقر إلى الأدلة . وصمتت قليلا ثم قالت :

– يعتقد المفتش "**تافرنر**" أن "**بريندا**" سممت جدي بالاتفاق مع "**لورانس**" .. أليس كذلك ؟ .. إنه احتمال وجيه وخصوصا إذا وضعنا في الاعتبار أن "**بريندا**" و"**لورانس**" يتبادلان الحب ..

– يجب ألا تقولي مثل هذا الكلام يا "**جوزيفين**" .

– ولم لا ؟ .. أليست هذه هي الحقيقة ؟ ..

– لا أحد يعلم .

– ولكنهما يتبادلان الرسائل الغرامية .

– كيف علمت ؟

– أنا أعلم؛ لأنني قرأتها .. ووجدتها تفيض بالعبارات العاطفية .. وذلك

لا يستغرب من شخص مثل "**لورانس**" .. إنه جبان إلى حد أنه خاف من الاشتراك في الحرب ، وعندما كانت الصواريخ تمر فوق البيت ، كان يرتجف فزعا ويصفر لونه فأغرق أنا و"**أوستاش**" في الضحك .

*****

كان من الممكن أن يستمر حديثنا أكثر من ذلك لولا أن سمعنا في هذه اللحظة صوت وقوف سيارة بباب البيت فأسرعت "**جوزيفين**" إلى النافذة وأطلت منها فسألتها :

– من القادم ؟

– السيد "**جيتسكيل**" .. محامي جدي .. وأظن أنه جاء من أجل الوصية. وبدا عليها الانفعال ، وأسرعت إلى قاعة الاستقبال ، وربما لتواصل تحرياتها. وجاءت "**ماجدا**" على الأثر ولشد ما كانت دهشتي حين رأيتها تقبل علي وتتناول يدي بين يديها وتهتف قائلة :

– حمدا لله على أنك مازلت هنا ! .. فما أحوجنا إلى رجل في هذا البيت! وتركت يدي ، وجلست على مقعد ، ونظرت إلى وجهها في إحدى المرايا ، ثم راحت تنقر بأناملها على حافة المائدة . وأطلت "**صوفيا**" برأسها من الباب وقالت :

– جاء السيد "**جيتسكيل**" . فقالت "**ماجدا**" :

– أعلم ذلك . وعادت "**صوفيا**" بعد قليل برفقة رجل قصير القامة فنهضت "**ماجدا**" لاستقباله. قال "**جيتسكيل**" :

– طاب يومك يا سيدتي .. لقد جئت لمقابلة زوجك؛ إذ يبدو أن هناك سوء تفاهم بشأن الوصية . فقد فهمت من رسالة بعث بها إلي أنه يعتقد أن الوصية عندي ، ولكنني أظن مما سمعته من السيد "**أرستيد ليونيدس**"

نفسه أن الوصية في خزانته .. فهل تعلمين أين هي ؟ .. ففتحت **"ماجدا"** عينيها بدهشة وقالت :

– أنا ؟ .. كلا بالتأكيد !.. لا تقل لي إن تلك المرأة البغيضة قد أعدمتها . فرفع المحامي سبابته محذرا وقال :

– كلا يا سيدتي .. كلا .. لماذا تلقين الاتهامات جزافا ؟ .. كل ما في الأمر أننا نريد أن نعرف أين احتفظ السيد **"ليونيدس"** بوصيته .

– إنه أرسلها إليك .. أنا متأكدة .. لقد قال لنا ذلك بنفسه . فلم يكلف **"جيتسكيل"** نفسه عناء تكذيبها وقال :

– لقد فحص رجال الشرطة أوراق السيد **"ليونيدس"** . سأتحدث في الأمر إلى المفتش . وانصرف فصاحت **"ماجدا"** :

– إنها أعدمت الوصية .. لا شك عندي في ذلك . فقالت **"صوفيا"** :

– كلا يا أماه .. إنها لا تقدم على مثل هذه الحماقة .

– حماقة ؟ .. ألا تعلمين أنه في حال عدم وجود وصية فإن التركة كلها تؤول إليها ؟

– صه .. هوذا **"جيتسكيل"** . دخل المحامي برفقة المفتش .. ودخل **"فيليب"** في أثرهما . قال المحامي :

– لقد فهمت مما صرح لي به السيد **"ليونيدس"** أنه أودع الوصية في البنك. فهز **"تافرنر"** رأسه وأجاب :

– إنني اتصلت تليفونيا بالبنك وقيل لي إن السيد **"ليونيدس"** لم يودع به سوى بعض الأسهم والسندات وليست هناك أية أوراق خاصة .

– ربما كان **"روجر"** أو الخالة **"أديث"** يعلمان شيئا .. هل لك أن تستدعيهما يا **"صوفيا"** ؟

جاء **"روجر"** وأكد أن أباه أرسل الوصية إلى المحامي بالبريد غداة يوم

توقيعها . فقال المحامي :

- إذا لم تكن الذاكرة قد خانتني . فإنني أرسلت مشروع الوصية إلى السيد "ليونيدس" يوم 24 تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي فوافق عليه .. وبعد بضعة أيام قدمت إليه الوصية لتوقيعها .. ولما لم يردها إلي ، اتصلت به بعد نحو أسبوع لأسأله إذا كان يريد أن يدخل عليها بعض التعديلات ولكنه أجاب بأنه وافق على كل ما جاء بها ووقع عليها بإمضائه وأودعها خزانة البنك الذي يتعامل معه . فقال "روجر" :

- كل هذا صحيح .. فقد حدث في نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي أن دعانا أبي للاجتماع به ذات مساء وتلا علينا وصيته . فالتفت "تافرنر" إلى "فيليب" وسأله :

- هل حدث ذلك يا سيد "ليونيدس" ؟

- نعم ...

- وماذا كان مضمون الوصية يا سيد "جيتسكيل" ؟ فقال "روجر" دون أن يدع فرصة للمحامي :

- كان مضمونها يسيرا وواضحا .. كانت شقيقتاي "اليَلترا" و"جويس" قد توفيتا فعاد إلى أبي كل ما وهبه لهما فلم يبق من الورثة سواي أنا و"فيليب" فأوصى أبي بمبلغ خمسين ألف جنية خالية من الضرائب للخالة "أديث" وبمبلغ مائة ألف جنيه لـ"بريندا" التي أوصى لها كذلك بهذا البيت وقسم الباقي ثلاثة أقسام متساوية ، أحدها لي والثاني لـ"فيليب" والثالث يوزع بالتساوي بين أولاد "فيليب" الثلاثة ،"صوفيا" ، و"جوزيفين" ، و"أوستاش" ، على أن ينال الأخيران نصيبهما متى بلغا سن الرشد .. أظن أنني لم أخطئ يا سيد "جيتسكيل" ؟ فأجاب المحامي :

- الواقع أن هذا هو ملخص الوصية التي كتبتها وفقا لتعليمات السيد

"**ليونيدس**" . فقال "**روجر**" :

– لقد تلاها أبي علينا . وطلب إلينا أن نبدي ملاحظاتنا عليها . . ولكن لم تكن ثمة ملاحظات . فقالت الآنسة "**دي هافيلاند** "مستدركة :

– بل كانت هناك تعليقات "**بريندا**" . فقالت "**ماجدا**" بسرور واضح :

– نعم. . لقد قالت : إنها لا تطيق سماع الحديث عن موت عزيزها "**أرستيد**" . . وأنها لا تريد جنيها واحدا من أمواله إذا مات . فقالت "**دي هافيلاند**" باحتقار :

– كان تعليقا مبتذلا لا ينم عن البيئة التي نشأت فيها . لم يكن ثمة شك في أنها تمقت "**بريندا**" كل المقت . فسأل "**تافرنر**" :

– وماذا حدث بعد قراءة الوصية ؟. . قال "**روجر**" :

– متى وكيف ؟ فنظر "**روجر**" إلى زوجته مستنجدا . . فقالت "**كليمنسي**" :

– هل تريد أن تعرف كل التفاصيل عن توقيع الوصية ؟

– نعم . . إذا تفضلت . . وضع السيد "**أرستيد**" الوصية أمامه على المكتب وطلب إلى أحدنا – وأعتقد أنه "**روجر**" – أن يدعو خادمه الخاص "**جونسون**" ، ولما جاء "**جونسون**" طلب إليه السيد "**أرستيد**" أن يأتي بالوصيفة "**جانيت وولمر**" . .

جاءت الوصيفة ، وحينئذ وقع السيد "**أرستيد** " الوصية وطلب إلى الخادم والوصيفة أن يوقعا تحت إمضائه بصفتهما شاهدين . . فقال "**جيتسكيل**" :

– هذا إجراء قانوني لا غبار عليه . فقال "**تافرنر**" :

– وبعد ذلك ؟

– وبعد ذلك شكرهما وطوى الوصية ووضعها في غلاف وقال إنه سيبعث بها إلي السيد "**جيتسكيل**" في اليوم التالي . . فأجال "**تافرنر**" بصره بين

الحاضرين وسأل :

– هل تم توقيع الوصية على هذا النحو ؟ فأومأ الجميع برؤوسهم علامة الإيجاب ، فقال محدثا "**كليمنسي**" :

– قلت إنه وضع الوصية أمامه على المكتب .. هل كنت على مقربة منه وقتئذٍ؟

– كنت منه على بعد ثلاثة أمتار أو أربعة ..

– حينما قرأ السيد "**ليونيدس**" الوصية . هل كان جالسا أمام مكتبه ؟

– نعم ..

– وبعد أن قرأ الوصية . هل نهض وابتعد عن المكتب قبل أن يوقع عليها؟

– لا ..

– هل كان بوسع الخادمين قراءة الوصية وهما يوقعان عليها ؟ ..

– لا .. فقد وضع السيد "**أرستيد**" على السطور المكتوبة قطعة ورق بيضاء فقال "**فيليب**" :

– فعل ذلك لسبب .. هو أن مضمون الوصية لا يعنيهما .. فأخرج المفتش من جيبه غلافا مستطيلا قدمه إلى المحامي وهو يقول :

– ألق نظرة على ما في هذا الغلاف وأنبئني بما تراه . فأخرج المحامي من الغلاف ورقة بسطها وألقى عليها نظرة سريعة وارتسمت على وجهه دلائل الدهشة .. وهتف :

– هذا عجيب .. هل لي أن أسألك أين وجدت هذه الورقة ؟

– في خزانة السيد "**ليونيدس**" .. وبين أوراقه .. فسأله "**روجر**" :

– ماذا في هذه الورقة ؟ فأجاب المحامي :

– إنها الوصية التي أرسلتها إلى أبيك لتوقيعها .. ومن عجب أنه لم يوقع عليها .. على الرغم مما قررتموه جميعا .. فقال المفتش :

– لعلها صورة من الوصية ..

– إن الصورة عندي في مكتبي .. فصاح "روجر" :

– ولكن هذا مستحيل .. فسأله "تافرنر" :

– هل كان أبوك قوي البصر ؟

– إنه يستعمل النظارة في القراءة والكتابة ..

– هل استعملها في ذلك المساء ؟

– نعم ، ثم خلعها بعد التوقيع .. فقالت "كليمنسي" مؤكدة :

– نعم .. ذلك ما حدث تماما .

– هل أنتم جميعا على يقين من أن أحدا لم يقترب من المكتب قبل توقيع الوصية؟ فقالت "صوفيا" :

– لم يقترب أحد من المكتب ، ولم يبرح جدي مكانه لحظة واحدة ...

– هل كان المكتب في مكانه الحالي ؟ .. ألم يكن قريبا من أحد الأبواب أو إحدى النوافذ ؟

– نعم .. كان في مكانه حيث رأيته .. فقال "تافرنر" :

– ليس ثمة شك في أن السيد "ليونيدس" قد وقع بإمضائه على الوصية التي قرأها عليكم . وما أريد معرفته الآن هو كيف استبدلت الوصية التي تحمل توقيعه وتوقيعي الشاهدين .. بهذه الوصية الخالية من التوقيعات .. فقال "روجر" :

– ألا يحتمل أن يكون بعضهم قد عمل على إزالة التوقيعات ؟

– إن عملية الإزالة لابد أن تترك أثرا .. ومن المرجح أن هذه الورقة ليست الوصية التي أرسلها السيد "جيتسكيل" إلى السيد "أرستيد ليونيدس" التي تلاها هذا الأخير عليكم .. فصاح المحامي :

– هذا مستحيل .. أقسم أنها نفس الوصية ، إن في أعلى الورقة إلى

اليسار صورة صغيرة لطائرة .. وها هي ذي الصورة .. فقالت الآنسة "**دي هافيلاند**" :

– المهم .. هو أن نعرف موقفنا الآن .. فقال "**جيتسيكل**" :

– إن هذه الوصية تجب سائر الوصايا التي كتبها "**أرستيد ليونيدس**" من قبل.. ويوجد أكثر من شاهد على أنها تتضمن رغباته .. وأنها الوثيقة التي أعتقد أنه وقع عليها .. فرغباته إذن معروفة .. ولكننا نجد أنفسنا الآن حيال مشكلة قانونية في غاية الدقة .. فنظر "**تافرنر**" إلى ساعته وقال :

– أخشى أن أعوقكم عن الطعام .. فقال "**فيليب**" :

– لماذا لا تتناول الغداء معنا أيها المفتش ؟

– شكرا لك يا سيدي .. ولكني على موعد مع الدكتور "**جراي**" ..

– وأنت يا سيد "**جيتسكيل**" .. ألا تتناول الطعام معنا ؟

– بكل سرور يا "**فيليب**" .. ونهض الجميع فهمست في أذن "**صوفيا**" بأنني أوثر الرحيل ، فقالت لي :

– إن ذلك أفضل .. وهكذا غادرت الغرفة مهرولا لألحق بالمفتش "**تافرنر**" ..

*****

- 11 -

دخلت مكتب أبي في "**اسكتلنديارد**" حينما كان المفتش "**تافرنر**" يعرض عليه نتيجة أبحاثه .. كان يقول وعلى وجهه دلائل الامتعاض :

– وهأنتذا ترى أنني سبرت أغوارهم ، وعرفت ما في سرائرهم .. وماذا

كانت النتيجة ؟ .. لا شيء .. لم أهتد إلى القاتل .. ولا إلى الدافع إلى الجريمة .. وكل ما عرفته عن المرأة وعشيقها .. أنها كانت تحدجه بنظرات وهي تقدم له أقداح القهوة .. فقلت له :

– يبدو أنني أعرف ما هو أهم من ذلك يا "تافرنر"

– حقا ؟ .. حدثني إذن بما تعرف .. فجلست وأشعلت لفافة تبغ وأفرغت ما في جعبتي .. وقلت :

– كان "روجر" وزوجته يتأهبان للسفر إلى الخارج يوم الثلاثاء القادم .. وقد شجر خلاف شديد بين "روجر" وأبيه في يوم وفاة هذا الأخير على أثر اكتشاف الأب بعض الأخطاء الخطيرة في الشركة التي يديرها الابن، وقد اعترف الابن بذنبه. فهتف "تافرنر" وقد احمر وجهه :

– من أين علمت بكل هذا بحق السماء ؟ إذا كنت قد استجوبت الخدم فإن...

– إنني لم أتصل بالخدم .. وهذه المعلومات قد استقيتها من شرطي سري خاص..

– ماذا تقول ؟

– يبدو – كما في القصص – أن الشرطي السري الخاص تفوق على رجال الشرطة الرسميين .. وأنه فيما أعتقد يعرف أكثر مما ذكره لي ... ففتح "تافرنر" فمه ليتكلم ولكنه لم ينطق بحرف .. كانت هناك أسئلة كثيرة تبدو على شفتيه ولا يعلم بأيها يبدأ ... وأخيرا قال:

– إذن "روجر" هو ضالتنا ؟

فحدثته بكل ما ذكرته لي "جوزيفين" .. وأعترف بأنني فعلت ذلك على كره مني .. فقد كنت أعطف على "روجر"، ولا أود أن أطلق رجال الشرطة

في أثره.. ولكنني كنت أعلم أنه لو صح ما قالته "**جوزيفين**" .. فإن التحقيق لابد أن يأخذ اتجاها آخر ؛ إذ سيجد البوليس في اختلاس "**روجر**" لأموال الشركة المتحدة للمواد الغذائية وفي اكتشاف الأب هذا الاختلاس - تفسيرا للجريمة خصوصا وأن "**روجر**" كان ينوي مغادرة "**إنجلترا**" قبل أن تظهر الحقيقة ... قال أبي :

- يجب أولا أن نعرف حقيقة مركز الشركة .. فقال "**تافرنر**" :

- إذا كانت الشركة تواجه متاعب مالية .. فإن ذلك ينهي الموضوع .. وتكون الجريمة قد حدثت على النحو التالي : دعا العجوز ابنه "**روجر**" ووجّه إليه الاتهام، فانهار الابن واعترف ، وكانت "**بريندا**" وقتئذ في السينما فخرج "**روجر**" من غرفة أبيه وذهب إلى الحمام ، وأفرغ إحدى زجاجات "**الأنسولين**" وملأها بمادة "**الإيزيرين**" .. وربما يكون قد طلب إلى زوجته أن تفعل ذلك، فإنها روت لنا أنها ذهبت إلى شقة العجوز بدعوى البحث عن غليون نسيه زوجها هناك .. إنها امرأة قوية الإرادة ، رابطة الجأش ومن الممكن جدا أن ترتكب هذه الجريمة .. فأطرقت برأسي موافقا واستطرد "**تافرنر**" قائلا :

- والرأي عندي أنها أقدر من زوجها على القيام بهذا الدور .. ثم إن "**روجر**" ليس الرجل الذي يفكر في "**الإيزيرين**" كوسيلة لارتكاب الجريمة .. فالسم كان دائما لعبة المرأة . فقال أبي :

- إنني لا أستبعد أن تكون فعلت ذلك في محاولة يائسة لإنقاذ زوجها ...

*****

وفي اليوم التالي دعاني أبي إلى مكتبه وهناك وجدت المفتش "**تافرنر**" ووجهه يتهلل بشرا ... وابتدرني أبي بقوله :

– إن الشركة المتحدة للمواد الغذائية تواجه متاعب مالية خطيرة . وأضاف "**تافرنر**" :

– وقد يعلن إفلاسها بين لحظة وأخرى . . فقلت :

– الواقع أنني قرأت أنباء الدوائر المالية ، وأن سعر أسهم الشركة هبط أمس هبوطا شديدا . . فقال "**تافرنر**" :

– إننا قمنا بتحرياتنا بحذر شديد حتى لا نثير حملة الأسهم ، أو انتباه "**روجر ليونيدس**" ، فعلمنا أن مركز الشركة سيئ إلى أقصى حد ، وأنها تدهورت باطراد خلال السنوات الأخيرة بسبب سوء الإدارة . .

– سوء إدارة "**روجر ليونيدس**" ؟

– بالتأكيد . . إنه رئيس مجلس الإدارة . .

– وهل اختلس شيئا من أموال الشركة ؟

– لا . . نحن لا نعتقد أنه اختلس مالا . . إنه قد يكون قاتلا ولكنه ليس محتالا . . ولعل أبرز صفاته أنه مغفل لا يحسن الحكم على الأمور أو الأشخاص . . كان يعمل على التوسع حيث يجب الانكماش . . وبالعكس . . وقد وضع ثقته فيمن لا يستحقها ، ومنح سلطات واسعة لأشخاص لا يحسنون استخدامها . . صفوة القول إنه كان يفعل دائما ما لا يجب أن يفعله . . كانت الشركة عندما تسلم إدارتها منجما للذهب ، ولكنه أضاعها بغبائه وعجزه . . وقد علمت أنه احتفظ بعدد كبير من الموظفين الذين لا يصلحون للعمل . . لمجرد أنه يعطف عليهم شخصيا أو لأنهم قضوا في الشركة مدة طويلة . . كما علمت أنه بدد أموالا طائلة في مشروعات غير مثمرة . .

– هل أقدم على عمل يضعه تحت طائلة القانون ؟

– لا . .

– إذن لماذا ارتكب جريمة القتل ؟

– لأنه لم يكن هناك ما ينقذ الشركة من الإفلاس إلا أن يحصل قبل يوم الأربعاء القادم على مبلغ كبير من المال ..

– كالمبلغ الذي سيرثه ؟

– تماما ..

– ولكنه لن يحصل على نصيبه من الميراث فورا ..

– إنه كان يحتاج إلى الثقة والضمان .. فإذا أذيع أنه سيرث فإن ذلك يكفي. فقال أبي :

– ألم يكن أيسر عليه أن يذهب إلى أبيه ليطلب معونته ؟ قال "**تافرنر**" :

– أعتقدأنه ذهب إلى أبيه لهذا الغرض .. وأن الحديث الذي دار بينهما هو ذلك الحديث الذي سمعته "**جوزيفين**" ومن المرجح أن العجوز رفض .. ولعله وجد أن لا فائدة من محاولة استرداد الخسائر .. كان رجلا حصيفا يضن بماله أن يضيع سدى..

وهنا تذكرت ما قالته "**جوزيفين**" عن رفض العجوز تمويل مسرحية "**ماجدا**" .. لأنه قدر لها السقوط ، وأثبتت الأيام سلامة تقديره .. لقد كان العجوز كريما مع أولاده وذويه .. ولكنه كان أحرص من أن يبدد أمواله في مشروعات مقضي عليها بالفشل .. ويبدو أن الشركة المتحدة للمواد الغذائية كانت تحتاج إلى مئات الألوف من الجنيهات لكي تقف على قدميها .. ولكن العجوز رفض تقديم هذا المبلغ فلم يجد "**روجر**" وسيلة لتجنب الإفلاس إلا أن يقتل أباه .. هذا إذن هو الدافع الذي كنا نبحث عنه .. ونظر أبي إلى ساعته وقال :

– لقد دعوته للحضور .. وسيصل بين لحظة وأخرى ..

– من ؟ "روجر" ؟

– نعم ... وتذكرت أسطورة العنكبوت الذي دعا الذبابة لدخول غرفته ..

كان كل شيء معدا لاقتناص الفريسة .. فأبي يتحرق شوقا للقاء المتهم وفي أحد الأركان ضابط على استعداد لتسجيل كل ما يقال .. وأخيرا جاء "روجر" .. قال والكلمات تقتتل في فمه كالعادة :

– هل طلبتم مقابلتي ؟ .. هل وجدتم أدلة جديدة ؟ .. آه .. معذرة يا "تشارلس" .. الحق أنني لم أرك .. شكرا لك على حضورك .. ولكن حدثني يا سيد "آرثر" ..

ولكن أبي كان يجلس جلسة رسمية .. وقد بادره بالعبارات التقليدية التي توجه عادة إلى كل متهم .. من أنه سيحاسب على كل كلمة ينطق بها .. وعن حقه في الامتناع عن الإجابة إلى أن يحضر محاميه .. وهز "روجر" كتفيه باستخفاف ، وقال إنه يعرف الإجراءات القانونية .. وإنه لا يحتاج إلى محام .. فقال أبي :

– لقد دعوتك يا سيد "ليونيدس" .. لا لأنهي إليك معلومات جديدة .. وإنما لأطلب إليك الإدلاء بما لديك من معلومات حبستها عنا .. فبهت "روجر" وقال :

– ولكني أنبأتكم بكل شيء ..

– لا أظن ذلك .. هل قابلت أباك بعد ظهر اليوم الذي توفي فيه ؟

– نعم . تناولت الشاي معه ، وقد قلت لكم ذلك ..

– صحيح أنك قلت ذلك .. ولكنك لم تذكر شيئا عن الحديث الذي دار بينك وبينه ..

– كان حديثا عاديا ..

– عن أي شيء ؟

– عن أحداث اليوم .. وعن المنزل .. و"صوفيا" ..

– ألم تتحدثا عن الشركة المتحدة ؟ وكنت حتى تلك اللحظة أرجو أن

يكون ما سمعته من "**جوزيفين**" مجرد أوهام من صنع خيالها ، ولكن هذا الرجاء تبدد حينما رأيت اضطراب "**روجر**" وشحوب وجهه .. تهالك على أحد المقاعد وغمغم وهو يدفن وجهه بين كفيه ..

– يا إلهي ! وابتسم "**تافرنر**" كمن يريد أن يقول : "وقع الفأر في المصيدة!" قال أبي :

– أتعرف يا سيد "**ليونيدس**" بأنك لم تكن صريحا معنا ؟

– ولكن كيف علمتم ؟ .. كنت أظن أن لا أحد يعلم .. فقال له أبي :

– إن البوليس يعرف عمله جيدا . واستطرد قائلا :

– ألا ترى الآن يا سيد "**ليونيدس**" أن من مصلحتك أن تصارحنا بالحقيقة؟

– بالتأكيد سأصارحك بكل شيء .. فماذا تريد أن تعرف ؟

– هل صحيح أن الشركة المتحدة على شفا الإفلاس ؟

– نعم .. لا مناص من إفلاس الشركة .. ليت أبي فقط قد مات دون أن يعلم ذلك .. إنني أشعر بالخجل والعار ..

– هل سيؤدي إفلاس الشركة إلى إجراءات جنائية ..؟ فاعتدل "**روجر**" في جلسته ورفع رأسه بكبرياء وأجاب :

– لا .. بالتأكيد .. سنتوقف عن العمل ولكن بشرف وسيحصل الدائنون على أموالهم كاملة .. حتى لو صفيت كل ممتلكاتي .. كلا .. إن ما يخجلني هو أنني لم أكن جديرا بالثقة التي شرفني بها أبي .. إنه وضعني على رأس أقوى شركاته وأعزها عليه .. ولم يتدخل قط في أعمالي ولم يسألني عما أفعل .. كانت ثقته بي كاملة ولكني لم أكن جديرا بها .. فسأله أبي بجفاء :

– إذا لم تكن هناك إجراءات قانونية تخشاها .. فلماذا فكرت في الفرار مع زوجتك إلى الخارج دون أن تخطر أحدا ؟

– هل تعلم ذلك أيضا ؟

– نعم يا سيد "ليونيدس" ..

– أنت إذن لا تعرف موقفي .. كان مستحيلا عليّ أن أقابل أبي وأصارحه بالحقيقة .. ولو قد فعلت لظن أنني أطلب مساعدته .. ولسارع إلى مساعدتي دون تردد؛ لأنه كان يحبني .. ولكني لم أكن أريد ذلك .. لم أكن أريد للشركة أن تستمر؛ لأنني خشيت أن أتعثر مرة أخرى .. إنني لست كفؤا لإدارة شركة كهذه .. كنت أعلم منذ البداية أنني لست في ذكاء أبي .. ولكني بذلت قصارى جهدي وفشلت .. لا أحد يعلم كم شقيت لأنقذ الشركة على أمل ألا يعلم الرجل الطيب الكريم بحقيقة الموقف ، ولكن جهودي ذهبت سدى ، وجاءت اللحظة التي أدركت فيها أن لا مناص من الإفلاس .. فبحثت الموقف مع زوجتي .. وقررنا في النهاية ألا نصارح أحدا بالحقيقة ، وأن نرحل قبل أن تهب العاصفة .. وكان في نيتي أن أترك رسالة لأبي أوضح له فيها كل شيء .. وأضرع إليه أن يصفح عني .. وقدرت أن تصله الرسالة حين تكون الشركة قد انهارت وفات أوان إنقاذها .. وقد صحت عزيمتي على أن أشق طريقي في الحياة من جديد في أي بلد آخر .. وأنا أعلم أن الحياة لن تكون سهلة بالنسبة إليّ .. أو بالنسبة إلى "كليمنسي" .. التي ستضحي بالكثير ... ولكنها لم تحجم عن أية تضحية .. إنها امرأة عظيمة .. ورائعة .. فقال أبي بنفس اللهجة الجافة :

– لماذا عدلت إذن ؟

– عدلت ؟

– نعم .. لماذا ذهبت إلى أبيك في النهاية لتطلب معونته ؟ فحملق "روجر" في دهشة وقال :

– أنا لم أطالبه بأية معونة ..

– إنني أريد الحقيقة يا سيد "ليونيدس" ..

– هذه هي الحقيقة ، أنا لم أذهب إليه .. هو الذي أرسل في طلبي .. ويبدو أنه عرف الحقيقة بطريقة ما .. فواجهني بها .. واضطررت أن اعترف له بكل شيء .. وقلت له إن خسارة المال لا تعدل عندي إحساسي بأنني لم أكن أهلا لثقته .. وازدرد "روجر" لعابه ومضى في حديثه . قال :

– لم يؤنبني ، وكان رقيقا غاية الرقة ، فصارحته بأنني لا أريد مساعدته وأنني مصمم على مغادرة البلاد . ولكنه أبى أن ينصت إلي ، وصمم على ضرورة إنقاذ الشركة .. فقال أبي بلهجة صارمة :

– هل تريدنا أن نصدق أن أباك كان يعتزم معاونتك ماليا؟

– نعم، إنه كتب على الفور رسالة إلى البنك ضمنها تعليماته لهذا الغرض.. فنظر إليه أبي بارتياب ، فقال "روجر" وقد احمر وجهه خجلا :

– إن هذه الرسالة لا تزال معي .. كان ينبغي أن أرسلها بالبريد ولكني نسيت في غمرة الاضطراب الذي أعقب موت أبي .. أظن أنها معي .. وبحث في محفظته ووجد الرسالة وقدمها إلى أبي وهو يقول :

– اقرأها بنفسك ما دمت لم تصدقني .. ففض أبي الرسالة ، وأطل "تافرنر" من فوق كتفه .. وقرأها معه .. وكانت تتضمن – كما علمت فيما بعد – أمرا إلى البنك ببيع عدد من الأسهم والسندات ، وإرسال مندوب في صباح اليوم التالي ليتلقى من "أرستيد ليونيدس" تعليمات خاصة بالشركة المتحدة للمواد الغذائية ..

*****

إذن لم يكذب "روجر" .. حين قال إن أباه كان مصمما على إنقاذ الشركة.. قال "تافرنر" :

– سنحتفظ بهذه الرسالة يا سيد "ليونيدس" ، وسنعطيك إيصالا بها ..
فقال "روجر" وهو ينهض :
– هل لديكما أسئلة أخرى ؟ .·. هل اقتنعتما ؟ فقال "تافرنر" وهو يقدم إليه الإيصال ..
– ماذا فعلت بعد أن أخذت الرسالة ووضعتها في جيبك يا سيد "ليونيدس" ؟
– ذهبت إلى شقتي وكانت زوجتي قد عادت فأنبأتها كم كان أبي عظيما ورائعا.. وغلبني التأثر والانفعال فلم أدر ماذا أفعل ..
– عندما ذهبت لمقابلة أبيك .. هل عرجت على الحمام المتصل بغرفته ؟
– لا أظن .. لا .. أنا واثق من أنني لم أدخل الحمام .. هل تظن أنني الذي... فلم يدعه أبي يعبر عن استنكاره، ونهض بسرعة، وتناول يديه وهو يقول:
– شكرا لك يا سيد "ليونيدس" .. إنك زودتنا بمعلومات على جانب عظيم من الأهمية كان من الخطإ أن تكتمها طوال هذه المدة ..
وانصرف "روجر" ، فتناولت رسالة "أرستيد ليونيدس" ، وكانت لا تزال على مكتب أبي ، وقرأتها .. فقال "تافرنر" وهو لا يزال يتعلق بأذيال الأمل:
– ألا يحتمل أن تكون الرسالة مزورة ؟ فقال أبي :
– لا أظن ذلك .. وأعتقد أننا يجب أن نفهم الموقف على النحو التالي : كان العجوز يستعد لإنقاذ ابنه من الإفلاس ، وكان أقدر على ذلك من ابنه بعد أن يرث.. ونحن نعلم الآن أنه لا توجد وصية ، وأن حق "روجر" في الميراث مشكوك فيه .. ومعنى هذا أن الشركة لابد أن تفلس ومعناه أيضا أن "روجر" وزوجته لم تكن لهما أية مصلحة في وفاة العجوز .. بل على العكس ..

وكف عن الكلام فجأة .. كما لو كان قد خطر له خاطر جديد .. وبعد لحظة ، قال ببطء :

– لو كان "أرستيد ليونيدس" قد عاش ولو يوما آخر لنجا "روجر" من الإفلاس، ولكنه لم يعش .. ومات بعد ساعة أو نحو ساعة .. فقال "تافرنر" :

– هل تعني أن في البيت من يهمه إفلاس "روجر" ؟ فصمت أبي قليلا ثم قال :

– أو من يهمه أن تبقى ثروة العجوز كما هي ، فلا يبدد جانبا منها لتقويم شركة لا أمل فيها .. وبهذه المناسبة .. من يرث العجوز في حالة اختفاء الوصية ؟

– "بريندا ليونيدس" ..

– إذن لا شك في أن لها ضلعا في الجريمة ..

*****

وقبل أن أبرح المكتب قال لي أبي :

– إن خير ما تفعله يا بني ، هو أن تحاول كسب ثقة هؤلاء الناس ، وقد كانت "صوفيا" على حق حين قالت لك إن من مصلحتكما أن تظهر الحقيقة .. ثم استطرد قائلا وأنا أهم بالانصراف :

– شيء آخر أريد أن أقوله لك ..اسهر على الصغيرة .. فإنني أخشى أن يصيبها سوء ..

– تعني "جوزيفين" ؟

– نعم ، إن في ذلك البيت قاتلا لا يفتقر إلى الدهاء ومضاء العزيمة ، و"جوزيفين" فيما يبدو تعلم أشياء كثيرة ..

– مما لا شك فيه أنها كانت تعلم كل شيء عن "روجر" ، أمر واحد أخطأت فيه.. هو أن "روجر" لم يكن نصابا .. أما بقية معلوماتها فكانت صحيحة...

– أنا شخصيا أعول دائما على كلام الصغار ولا أهمله .. وخير وسيلة لاستدراجهم إلى الكلام ألا توجه إليهم أسئلة مباشرة .. دعهم يتكلمون على هواهم ، ولا تسألهم عن موضوع بذاته .. ومن الواضح أن "**جوزيفين**" تريد أن تفضي إليك بأمور لا علم لك بها .. ومهمتك في هذه الحالة هي أن تعيرها أذنا صاغية وتشجعها على الكلام .. والرأي عندي أن تتحدى ذكاءها فتقول لها مثلا إنها لا تعرف شيئا .. وسوف تكون النتيجة أنها تبذل قصارى جهدها لتثبت العكس .. المهم هو أن تسهر على سلامتها .. فقد يكون هناك من يعتقد أنها تعرف أكثر مما ينبغي ..

- 12 -

غادرت مكتب أبي وأنا أشعر بالقلق ووخز الضمير .. صحيح أنني نقلت إلى "**تافرنر**" كل ما قالته "**جوزيفين**" عن "**روجر**" .. ولكني لم أذكر كلمة واحدة عن الرسائل الغرامية التي زعمت الصغيرة أن "**بريندا**" و"**لورانس**" يتبادلانها .. وحاولت أن أجد لنفسي عذرا فقلت : إن حكاية الرسائل قد لا تكون صحيحة.. وإذا صحت فقد لا تكون ذات أهمية .. ولكن الحقيقة التي لا شك فيها ، هي أنني كنت أنفر من اتهام "**بريندا**" ، وأشعر بالعطف عليها .. لمجرد أنها وحيدة في بيت يمقتها كل أهله .. وإذا كانت هناك رسائل غرامية فمن المحقق أن "**تافرنر**" وأتباعه سيعثرون عليها عاجلا أو آجلا .. فليس ثمة إذن ما يدعوني إلى تنبيههم..

يضاف إلى ذلك أن "بريندا" أكدت لي أنها ليست هناك أية صلة عاطفية بينها وبين "لورانس" ، وأنا أميل إلى تصديقها أكثر مما أصدق تلك الشيطانة الصغيرة "جوزيفين" ..

*****

واتصلت تليفونيا بـ"صوفيا" لأسألها عما إذا كانت تسمح لي بزيارتها فأجابت على الفور :

– بكل تأكيد يا "تشارلس" ..

– كيف تسير الأمور في البيت ؟

– لا أعلم .. مازال رجال الشرطة يفتشون .. عم يبحثون ؟

– ليست لدي أية فكرة ..

– إن وجودهم يشد أعصابنا . فحاول أن تأتي بأسرع ما تستطيع .. لأنني ساجن إذا لم أجد من أحدثه .. فاستأجرت إحدى سيارات الأجرة وذهبت إلى بيتها ووجدت الباب مفتوحا، فترددت بين أن أقرع "الجرس أو أن أدخل مباشرة ، وقبل أن أقطع برأي شعرت بحركة خلفي ، فنظرت ، ورأيت "جوزيفين" ترقبني من بعيد ، ووجهها الصغير يكاد يختفي وراء تفاحة ضخمة تقضمها .. اقتربت منها وحييتها :

– طاب يومك يا "جوزيفين" ! ولكنها لم تجب .. وتراجعت إلى مقعد خشبي على حافة حوض صغير تسبح فيه الأسماك الملونة .. فلحقت بها ، ورأيتها تنظر إلي من فوق التفاحة ببغض واستنكار .. قلت لها :

– هأنذا قد عدت يا "جوزيفين" .. ولكنها لم تجب ، وضايقني صمتها .. قلت :

– هل هذه التفاحة ناضجة ؟ .. فتنازلت أخيرا وأجابت :

– إنها جافة ..

– هذا أمر يؤسف له .. أنا لا أحب التفاح الجاف .. لماذا لم تردي تحيتي عندما حييتك ..

– لأنها لا تعني شيئا ..

– لماذا ؟ .. فابتلعت ما في فمها قبل أن تجيب :

– لأنك تحدثت إلى رجال الشرطة . فدهشت ، ولاحظت هي دهشتي واستطردت قائلة :

– نقلت إليهم ما ذكرته لك عن العم "**روجر**" ..

– ولكني فعلت ذلك لمصلحة الجميع يا "**جوزيفين**" .. ورجال الشرطة يعلمون الآن أنه لم يقدم على عمل مخالف للقانون .. فرمقتني باحتقار وقالت :

– يا لك من غبي !..

– أنا آسف يا "**جوزيفين**" ..

– إن العم "**روجر**" لا يهمني .. وإذا كنت ناقمة عليك فلأن ما فعلته يتعارض مع أصول عمل الشرطي السري .. ألا تعلم أنه ليس من الحكمة الإفضاء لرجال الشرطة بشيء قبل الانتهاء من التحريات ؟

– أكرر لك أسفي يا "**جوزيفين**" ..

– إنني فقدت ثقتي بك .. فعبرت لها عن أسفي للمرة الثالثة .. وحينئذ فقط انبسطت أسارير وجهها، وقضمت قطعة كبيرة من التفاحة .. قلت :

– على كل حال كان رجال الشرطة سيعلمون في النهاية .. فهذه أمور لا يمكن إخفاؤها طويلا ..

– لأنه سيفلس ؟

– أعتقد أن ذلك أمر لا مناص منه ..

– إنهم سيناقشون هذا الموضوع الليلة وسيعقدون اجتماعا يشترك فيه أبي

وأمي والعم "روجر" والخالة "أديث " ، وقد عبرت الخالة عن استعدادها لوضع كل نصيبها من الميراث تحت تصرف "روجر" .. والعقبة الوحيدة هي أنها لم تحصل على نصيبها بعد .. أما أبي فإنه يقول : إن المشكلة تخص "روجر" وحده ولا شأن له بها .. وإن من الغباء محاولة استرداد الخسارة .. بمزيد من الخسائر .. وهذا أيضا هو رأي أمي التي تريد أن يحتفظ أبي بنقوده لتمويل مسرحية "أديث تومبسون" .. وبهذه المناسبة هل تعرف قصة "أديث تومبسون" ؟ .. إنها كانت متزوجة وكانت تكره زوجها؛ لأنها أحبت شابا يدعى "بايووترز" .. وانتهى الأمر بأن طعن الشاب زوج عشيقته فقتله ..

ومرة أخرى ، لم يسعني إلا الإعجاب بوفرة معلومات هذه الصغيرة . ولكني أردت استدراجها إلى ما هو أهم فقلت لها :

– أظن أنك قلت يا "جوزيفين" : إنك قد وفقت إلى معرفة القاتل ..

– وماذا في ذلك ؟

– ما اسمه ؟ فنظرت إلي باحتقار وأدركت غرضها .. قلت :

– فهمت .. تريدينني أن أنتظر حتى تفرغي من تحرياتك .. ولكني أعدك بألا أذكر شيئا للمفتش "تافرنر" ..

– إنني مازلت أبحث عن أدلة ..

– الرسائل ؟ .. إنك لم تحدثيني عنها ..

– أية رسائل ؟

– تلك التي تبودلت بين "بريندا" و"لورانس" ..

– لقد ذكرت لك ما أعرفه عنها ..

– إنني لا أصدق أن هناك مثل هذه الرسائل .. فحملقت إلى وجهي .. وترددت .. وسمعت في هذه اللحظة صوتا كالذي يحدثه تحطم غصن جاف

تحت قدمي إنسان .. قلت لها :

– على رسلك يا "**جوزيفين**" .. يخيل إليَّ أنك لا تعرفين شيئا على وجه اليقين. ولكنها لزمت الصمت، ولم تقع في الفخ ، ولم يسعني إلا التسليم بالهزيمة ، فقلت :

– يجب أن أذهب الآن لمقابلة "**صوفيا**" .. تعالي معي ..

– كلا .. سأبقى هنا ..

– كلا .. يجب أن تأتي معي .. وأمسكت بيدها وأرغمتها على النهوض.. فدهشت في البداية ، وقاومت .. ولكنها ما لبثت أن استسلمت.. وتبعتني إلى البيت صاغرة .. ولم أدر على الفور.. ماذا حملني على إرغامها على مرافقتي .. ولكني أدركت السبب وأنا أدخل البيت .. كان السبب هو ذلك الغصن الجاف الذي سمعته يتحطم تحت قدمي إنسان ربما كان يراقبنا دون أن نراه ..

- 13 -

سمعت لغطا في قاعة الاستقبال فوقفت ببابها مترددا ثم قررت ألا أدخل .. وواصلت السير في دهليز طويل مظلم ينتهي بباب ما كدت أقترب منه حتى فتح وانبعث منه نور قوي ، ورأيت في إطار الباب امرأة متقدمة في السن ، بدينة الجسم، ترتدي مئزرا ناصع البياض .. فأدركت على الفور أنها "**ناني**" ..

لست أذكر أنني قابلتها من قبل . ولكنها على الرغم من ذلك بادرتني بقولها :

– ألست السيد "تشارلس" ؟ .. ادخل ودعني أقدم لك قدحا من الشاي..

*****

كان المطبخ فسيحا ، فجلست أمام مائدة كبيرة في وسطه ، وقدمت لي "ناني" قدح شاي وبعض البسكويت . كنت في الخامسة والثلاثين ولكنني أحسست معها بأنني مازلت طفلا في الرابعة من عمره . قالت :

– ستُسر الآنسة "صوفيا" متى علمت بقدومك .. لقد بدأت أعصابها تنهار.. ثم أضافت باستياء :

–كالجميع .. فنظرت من فوق كتفي وسألت :

– أين "جوزيفين" ؟ .. إنها جاءت معي . فهزّت "ناني" رأسها وقالت :

– إنها مخلوقة عجيبة .. لا هم لها إلا استراق السمع على الأبواب .. أو كتابة لا أدري ماذا في دفتر صغير تحتفظ به دائما ولا تتركه . كان ينبغي أن يبعثوا بها إلى المدرسة لتلهو مع الأطفال الذين في مثل سنها .. لقد قلت ذلك للآنسة "أديث" فوافقتني ولكن السيد العجوز فضّل أن تبقى هنا..

– أظن أنه كان يحبها كثيرا ؟

– كان يحبهم جميعا يا سيدي . وفتح الباب في هذه اللحظة ودخلت "صوفيا" وهتفت :

– "تشارلس" ! .. أنت هنا ؟ .. كم أنا سعيدة بقدومك ! وحملت "ناني" بعض الصحاف وذهبت بها إلى غرفة داخلية وأغلقت بابها، فنهضت إلى "صوفيا" واحتويتها بين ساعدي، ولم أتمالك من أن أهتف :

– إنك ترتجفين أيتها العزيزة .. فماذا حدث ؟

– إنني خائفة يا "تشارلس" .. خائفة ..

– إذا كنت تريدين مغادرة هذا البيت . . . فقاطعتني :

– كلا يا "تشارلس" ، يجب أولا أن نعرف الحقيقة ، وسأبقى هنا حتى نعرفها . . إنها تجربة مخيفة حقا . . . وكلما فكرت في أنه يوجد بهذا البيت إنسان أراه كل يوم وأتحدث إليه . . ولعله يبتسم لي في بعض الأحيان في الوقت الذي يخطط فيه لارتكاب أبشع الجرائم . .

ماذا كان بوسعي أن أقول لها ؟ . . وهل تجدي العبارات المألوفة المبتذلة في طمأنة فتاة مثقفة من طراز "صوفيا" ؟ . . قالت بصوت خافت :

– إن ما يزعجني أكثر من أي شيء آخر . . هو احتمال ألا نعرف أبدا من هو هذا الإنسان ! كان الاحتمال بعيدا ، ولكنه ذكرني بسؤال كان في نيتي أن ألقيه عليها . . قلت لها :

– حدثيني يا "صوفيا" . . من في هذا البيت كان يعلم بموضوع "**الإيزيرين**" ؟ . . أو بالتحديد . . من كان يعلم : (أولا) بأن كمية معينة من هذا السم يمكن أن تقتل ؟

– إنني أدرك ما ترمي إليه يا "**تشارلس**" . . ولكن لا فائدة من ذلك . . لقد كنا جميعا نعرف هذه الأمور .

– ولكن . . .

– أصغ إلي . . حدث يوما أننا كنا نتناول القهوة مع جدي بعد الطعام . . وكانت عيناه تؤلمانه منذ بعض الوقت ، وقد اعتادت "**بريندا**" أن تسكب قطرات من "**الإيزيرين**" في عينيه كل ليلة . . وهي شغوفة بالاستفسار عن كل شيء ، فسألت عن معنى العبارة المكتوبة على قنينة "**الإيزيرين**" : (قطرات تستعمل من الظاهر)، فأوضحنا لها المعنى ، فسألت :

– وماذا يحدث للإنسان إذا شرب ما في هذه القنينة ؟ فابتسم جدي وأجاب :

– إذا حدث أن أخطأت "**بريندا**" وأعطتني حقنة من "**الإيزيرين**" بدلا من

"**الأنسولين**" فإنني قد أموت . فهتفت "**جوزيفين**" بارتياح :

– يا إلهي ! فقال جدي وهو لا يزال يبتسم :

– ولهذا يجب أن نحرص جميعا على ألا ندع "**بريندا**" تخلط بين "**الإيزيرين**" و"**الأنسولين**" . أليس كذلك ؟ وصمتت "**صوفيا**" لحظة ثم قالت :

– لقد سمعنا جميعا هذا الحديث .. ولذلك قلت لك إن كل إنسان في هذا البيت يعرف كل شيء عن "**الإيزيرين**" . فلزمت الصمت ، ولم أجد ما أجيب به..

كنت أرجو أن أجد في البيت شخصين أو ثلاثة أشخاص على الأكثر لهم من الدراية بخصائص "**الإيزيرين**" ما يساعدهم على استخدامه في ارتكاب جريمة قتل.. ولكن وضح الآن أن العجوز قدم بنفسه للجميع كافة المعلومات التي تساعدهم على الخلاص منه . ويبدو أن "**صوفيا**" أدركت ما يدور بخلدي .. لأنها ما لبثت أن هتفت :

– هذا مخيف .. أليس كذلك ؟

– لقد خطر لي خاطر .

– ما هو ؟

– إن "**بريندا**" لم ترتكب الجريمة ، لسبب بسيط هي أنها لا تستطيع الالتجاء إلى وسيلة عرفتموها معها من حديث العجوز ولا بد أنكم ستذكرونها .

– من يدري ؟ .. ثم لا تنس أنها غبية وحمقاء ..

– لا أظن ذلك .. إنني كلما فكرت في الأمر ازددت اقتناعا ببراءتها ..

– إنك في قرارة نفسك تتمنى ألا تكون هي القاتلة .. أليس كذلك ؟ فصمت، لم يكن باستطاعتي أن أقول لها كلا .. إنني أتمنى أن تكون هي

القاتلة .. لماذا لم يكن ذلك في استطاعتي ؟ ..هل لأنها وحيدة والجميع ضدها ؟

ربما .. هل لأن الإنسان مطبوع على التصدي لنصرة الضعيف الأعزل؟ ذلك محتمل .. ولكن الشيء المؤكد هو أنني شعرت بارتياح شديد حين رأيت "ناني" تخرج من الغرفة الخلفية وتقبل نحونا .. لقد جاءت في الوقت المناسب ، ولابد أنها لاحظت فتورنا؛ لأنها قالت :

– دعكم من الحديث عن الجريمة والمجرمين.. فذلك من شأن رجال البوليس.

فصاحت "صوفيا" :

– ألا تدركين يا "ناني" أن في البيت قاتلا أثيما ؟

– هراء .. إنكم تتركون جميع الأبواب والنوافذ مفتوحة وكأنكم تدعون اللصوص والقتلة إلى التفضل بالدخول .

– نحن لا نتحدث عن اللصوص يا "ناني" .. إن شيئا لم يسرق من البيت..

– لم أقل إن شيئا سرق .. إنما أردت أن أقول ، إنه من المحتمل أن يكون القاتل شخصا غريبا دخل من أحد الأبواب المفتوحة . فنظرت إلى "صوفيا" ونظرت إلي وابتسمنا .. قالت أخيرا :

– هلم بنا إلى قاعة الاستقبال يا "تشارلس" . هناك شبه مؤتمر عائلي كان مقررا أن يعقد في المساء .. ولكنهم بكروا بعقده .

– لا أريد أن أبدو دخيلا أو متطفلا يا "صوفيا" .

– ما دمت ستتزوج من الأسرة فيجب أن تعرف أفرادها على حقيقتهم .

– وما الغرض من هذا المؤتمر ؟

– بحث موقف "روجر" .. أظن أنك تعرف مركز شركته .. ولكن كان من الجنون أن تتوهم أنه قتل أباه .. لقد كان يحبه حب عبادة .

– الواقع أنني لم أشك فيه .. كانت كل شكوكي تحوم حول "**كليمنسي**" .

– وهذا أيضا خطأ .. فإن "**كليـمنسي**" لا يهمها أن يفقد "**روجر**" كل ثروته.. إنها امرأة عجيبة لا تشعر بالسعادة إلا عندما ينقصها كل شيء .. تعال . وما إن دخلنا قاعة الاستقبال حتى ساد الصمت فجأة وتحولت إلينا جميع الأنظار.

كانوا جميعا هناك .. "**فيليب**" يتربع على مقعد أحمر كبير بين نافذتين أشبه بقاض يهم بإصدار حكمه ، ووجهه الوسيم جامد كأنه قُدّ من صخر ، و"**روجر**" يجلس بجوار المدفأة وشعره المشعث ورباط عنقه ينمان عن مدى إهماله لمنظره "و**كليمنسي**" وراء زوجها وجسدها النحيل يبدو أشد نحولا في مقعدها الكبير، وعيناها تنظران بعيدا وكأنها لا تعبأ بشيء مما يدور حولها .. "**أديث**" منزوية في مقعد الجد العجوز وهي مرفوعة الرأس مطبقة الشفتين وأصابعها تعمل بإبرة التريكو بنشاط عجيب، أما "**ماجدا**" و"**أوستاش**" فكانا يجلسان جنبا إلى جنب على إحدى الأرائك ، وكأنهما لوحة بريشة فنان كبير ، هي بثوبها الأنيق الفضفاض وعنقها الجميل أشبه بإحدى الأميرات أو الدوقات ، وهو بوجهه الفني الوسيم الذي تبدو عليه دلائل السأم المقرون بالاستسلام المهذب .. رآني "**فيليب**" وقطب ما بين حاجبيه وقال :

– "**صوفيا**" .. هذا اجتماع عائلي ذو طابع خاص لبحث شؤون الأسرة ..

فهممت بالاعتذار والانسحاب ، ولكن "**صوفيا**" أجابت بثبات :

– أنا و"**تشارلس**" نعتزم الزواج ويهمني أن يشترك في هذا الاجتماع ..

فصاح "**روجر**" في حماسة :

– ولمَ لا ؟ .. قلت لك مرارا وتكرارا يا "**فيليب**" : إن الأمر لم يعد يتطلب الكتمان .. وغدا أو بعد غد سيعلم به الناس جميعا .. وترك مكانه واقترب

مني وقال وهو يضع يده على كتفي :

– ثم إنك سمعت ما دار بيني وبين أبيك أيها الشاب .. ولا بد أنك قد عرفت الآن كل شيء .. ومع ذلك فقد أحسست بأن وجودي غير مرغوب فيه، وبأنني يجب أن أنسحب، ولكن "**صوفيا**" ضغطت يدي .. وأصرت على بقائي .. وواصلت الآنسة "**دي هافيلاند**" الحديث الذي انقطع بدخولنا فقالت :

– الرأي عندي أننا يجب أن نحترم إرادة "**أرستيد**" ونعمل على إنقاذ الشركة.. وفيما يختص بي فإنني أضع كل ما أملك تحت تصرف "**روجر**" .. فصاح "**روجر**" في غضب :

– كلا يا خالتاه .. كلا .. وقال "**فيليب**" :

– وأنا أود أن أفعل المثل .. ولكن ثمة اعتبارات .. فقاطعه "**روجر**" قائلا :

– ألا تريد أن تفهم يا عزيزي "**فيليب**" أنني لا أريد ولن أقبل مالاً من أحد ؟

– نعم .. إنه لن يقبل .. فقالت "**ماجدا**" :

– إنه على كل حال سوف يحصل على نصيبه في الميراث .. فقال "**أوستاش**" :

– سيكون قد فات الأوان لإنقاذ الشركة .. فصاح "**روجر**" :

– قلت : إن الشركة لا تهمني .. فلندع الأمور تجري في طريقها الطبيعي.. فقال "**فيليب**" :

– وسمعة الأسرة ؟ .. وكرامة الأب .. وكرامتنا !

– إن الشركة لا تحمل اسم الأسرة .. إنها شركتي وتحمل اسمي .. وهنا نهضت "**أديث دي هافيلاند**" وقالت بحزم :

– أظن أن المناقشة طالت أكثر مما ينبغي .. فنهض "**فيليب**" و"**ماجدا**" ،

وغادر "**أوستاش**" القاعة وهو يعرج ، وتأبط "**روجر**" ساعد "**فيليب**" وهو يقول :

– لابد أنك جننت يا "**فيليب**" حتى تظن أنني سأطلب مساعدتك ..

خرج الأخوان معا وتبعتهما "**ماجدا**" و"**صوفيا**" التي قالت إنها ستذهب لتعد لي إحدى الغرف ، ونظرت "**أديث هافيلاند**" نحوي حتى ظننت أنها تريد أن تتحدث إلي ، ولكن يبدو أنها عدلت ؛ لأنها انصرفت على الأثر دون أن تنظر يمنة أو يسرة .. أما "**كليمنسي**" فإنها وقفت أمام النافذة وراحت تنظر إلى الحديقة .. فاقتربت منها .. فتحولت إلي وقالت :

– حمدا لله .. لقد انتهى الاجتماع .. وصمتت قليلا ثم استطردت قائلة :

– هذا الاجتماع العائلي .. هو الفصل الثاني من المسرحية .. و"**ماجدا**" هي صاحبة الفكرة .. ولكنه أسفر عن لا شيء .. لأن الموضوع كان منتهيا تماما . كان صوتها ينم عن الارتياح .. لا الحزن .. فدهشت ، ولاحظت هي دهشتي وقالت :

– ألم تفهم ؟ .. لقد ظفرنا أخيرا بحريتنا بعد سنوات طويلة قضاها "**روجر**" في بؤس وشقاء .. إنه لم يخلق لإدارة الأعمال .. فهو يحب الجياد والأشجار والحقول .. وكان – كسائر أفراد الأسرة – يحب أباه حبا جما .. وهذا هو سر شقاء هذا البيت .. لم يكن الأب طاغية ، ولم يكن يفرض إرادته على أحد .. كان يحب أولاده ويبذل قصارى جهده ليكفل لهم الغنى والاستقلال .. وكان الأولاد يحبونه حب عبادة ..

– وهل في ذلك خطأ ؟

– نعم .. إلى حد ما .. عندما يكبر أولادك فإنه يحسن بك أن تبتعد عنهم .. وتختفي من حياتهم .. وترغمهم على نسيانك .. لا أن تدع

ما بينك وبينهم من حب يطغى على شخصيتهم ويحكم تصرفاتهم ..

كانت الشركة المتحدة للمواد الغذائية موضع فخر "**أرستيد ليونيدس**" .. وكانت تمثل بالنسبة إليه قمة النجاح .. فنزل عنها لـ"**روجر**" .. أكبر أولاده.. وحاول "**روجر**" أن يكون جديرا بالثقة التي وضعها فيه أبوه .. ولكنه كان يشعر بعجزه وقصوره .. وذلك ما جلب له التعاسة طوال السنين الماضية .. كان يرى الشركة تتدهور عاما بعد عام ، فيبذل لها مزيدا من الجهد ، فلا تزيدها جهوده إلا تدهورا . ولما أصبح إفلاسا محققا .. تنفس الصعداء .. وأحس بالارتياح والخلاص .. وبدأ يفكر في الحياة الجديدة التي سنحياها..

– وإلى أين كان في نيتكما الرحيل ؟

– إلى "**باربادوس**" .. لقد مات أحد أقاربي هناك وترك لي قطعة من الأرض.. صحيح إنها قطعة صغيرة ولكنها أكثر مما سوف نحتاج إليه .. سنكد وسنكدح.. ولكننا سنكون سعيدين . تنهدت وأردفت :

– إن ما يحزن "**روجر**" هو اعتقاده بأنني سوف أضيق بالفقر وهو اعتقاد خاطئ. . نابع بغير شك من أنه نشأ في أسرة تضع المال في المكان الأول من اهتماماتها ، أما أنا فقد عشت مع زوجي الأول في فقر مدقع . وقد اعتبر "**روجر**" ذلك منتهى الشجاعة من جانبي ، ولم يدرك أنني كنت سعيدة كل السعادة .. بل كنت أكثر سعادة مني الآن على الرغم من أنني لم أحب زوجي الأول قط كما أحببت "**روجر**" ..

وأغمضت عينيها ثم فتحتهما ونظرت إلي وقالت : وهذا يعني أنني لست المرأة التي ترتكب جريمة قتل من أجل المال .. لأنني لا أحب المال ..

ولم يكن يخامرني شك في صدقها.. كانت من الأشخاص القلائل في هذه الدنيا ، الذين لا يحفلون بالمال أو بما يوفره المال لأصحابه من متع

وسلطان، قلت :

– إنني مقتنع تماما بأنه لا ضلع لك أو لـ" روجر " في الجريمة ، ولا مصلحة لكما في ارتكابها . ولكني أعتقد أنك من الذكاء بحيث يكون لديك فكرة عمن ارتكبها ، فرمقتني بنظرة طويلة غريبة وقالت بصوت خافت خلا من الحماسة :

– إن التكهن لعبة غير علمية ، كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أن "**برينداً**" و"**لورانس**" هما في مقدمة المشتبه فيهم ..

– هل ترتابين فيهما ؟ فهزت كتفيها ، وأرهفت أذنيها لحظة ثم خرجت مسرعة في اللحظة التي دخلت فيها **أديث دي هافيلاند**" وهي تقول :

– أريد أن أتحدث إليك .. فدنوت منها .. قالت :

– أرجو ألا يكون الاجتماع العائلي قد ترك في نفسك انطباعا سيئا .. أعني عن "**فيليب**" .. إنه يبدو جامد العاطفة شديد التحفظ ولكنه في الحقيقة ليس كذلك.. كان "**روجر**" هو الأخ الأكبر ، وكان أثيرا عند أبيه بعض الشيء لهذا الاعتبار، وأظن أن "**فيليب**" أحس بذلك فانطوى على نفسه في الكتب التي تتحدث عن الماضي وتنأى به عن حاضره وعن حياته اليومية .. وصمتت لحظة ثم قالت :

– ويخيل إلي أنه كان دائما يغار من "**روجر**" دون أن يشعر .. ولهذا لم يحزن كثيرا لإخفاقه وفشله في إدارة الشركة .. ولم يسارع إلى نجدته كما كان يجب عليه أن يفعل ..

- 14 -

قالت "صوفيا" :

– ها هي ذي غرفتك .. كانت غرفة فسيحة ، كسائر غرف البيت ذي القباب الثلاث .. وأثاثها قليل، ولكنه ثمين .. وليس بها لوحات أو تحف .. وقفت أمام النافذة ، ونظرت إلى الحديقة .. فبدت لي في الغسق موحشة حزينة.. وأشجارها التي تجردت من نصف أوراقها تتمايل مع ريح الخريف كأنها أشباح تترنح .. وفجأة، فُتح باب الغرفة ودخلت "**ماجدا**" وهي تقول :

– لماذا لا تضيئان النور أيها العزيزان ؟ .. لقد هبط الظلام .. وأضاءت النور واستلقت على أحد المقاعد واستطردت قائلة :

– هل شاهدتما مسرحيتنا الصغيرة؟.. كانت "**أديث**" رائعة حين تبرعت بنصيبها في الميراث لإنقاذ الشركة .. وكانت مخلصة أيضا .. كانت حركة غبية خشيت أن يتأثر بها "**فيليب**" فيفعل المثل .. الواقع أن "**أديث**" لا تضن بأية تضحية من أجل الأسرة ، وأن حب عانس عجوز لأولاد أختها على هذا النحو لأمر يدعو إلى التأثر .. كم أود أن ألعب يوما دورا كهذا .. دور خالة عجوز يفيض قلبها حبا وحنانا .. فقلت :

– لابد أنها عاشت أياما تعسة عقب موت أختها .. خاصة وأنها كانت تكره زوج أختها ولا تطيقه ..

– من قال لك هذا الكلام ؟ .. إنها كانت مولعة بحبه .. فصاحت "صوفيا" :

– أماه !

– لا تحاولي معارضتي يا "صوفيا" .. أتظنين أن الحب وقف فقط على

الشباب الذين يتناجون في ضوء القمر ؟ فقلت :

– ولكن "**أديث**" هي التي قالت لي بنفسها إنها كانت تمقته ..

– ربما كان ذلك في البداية .. ولكنها أحبته فيما بعد ولم ترض عن زواجه الثاني.. فقالت "**صوفيا**" :

– وأنت وأبي لم ترضيا أيضا عن زواجه الثاني .

– بالتأكيد .. كان زواجا غير متكافئ ولكن "**أديث**" كانت أشدنا غضبا واستياء.. ليتك رأيت نظراتها إلى "**بريندا**" !

– كفى يا أماه !

فنظرت "**ماجدا**" إلى ابنتها في ضراعة نظرة طفل يرجو الصفح والمغفرة.. وقالت دون أن تحفل بأنها قد انتقلت إلى موضوع آخر مختلف تماما :

– إنني قررت أن أرسل "**جوزيفين**" للإقامة في إحدى المدارس .. لقد آن لي أن أفعل ذلك ...

– "**جوزيفين**" !

– نعم .. سأرسلها إلى "**سويسرا**" .. وسأشرع غدا في اتخاذ الإجراءات اللازمة لذلك .. لم يعد من مصلحتها أن تبقى هنا .. حيث لا هم لها إلا التفكير في الجريمة والمجرمين ثم إنها تحتاج إلى زميلات في مثل سنها .. إن المدرسة الداخلية هي أفضل مكان لها .. ذلك كان رأيي دائما ..

– ولكنه لم يكن رأي الجد ..

– إن العجائز تطغى عليهم الأنانية أحيانا .. وقد كان العجوز العزيز يريدنا جميعا تحت بصره .. بينما المكان الطبيعي للطفل هو أن يكون بين أطفال في مثل سنه .. ثم إن "**سويسرا**" بلاد جميلة .. ستنعم فيها "**جوزيفين**" بالهواء

النقي ورياضة الشتاء .. والطعام الجيد .. ولن تجد فيها مجالا للقيام بدور البوليس السري..

*****

"لن تجد فيها مجالا للقيام بدور البوليس السري .." رنت هذه العبارة في أذني ، ولم أتمالك من أن أسأل نفسي : ألهذا فقط قررت الأم فجأة أن ترسل ابنتها إلى "**سويسرا**" ؟ إن "**جوزيفين**" تعرف أشياء كثيرة .. حدثت قبل الجريمة وبعدها .. ترى هل لذلك صلة بقرار إبعادها إلى "**سويسرا**" ؟

- 15 -

في صباح اليوم التالي تناولت الفطور وصعدت الطابق الأول حيث توجد قاعة الدراسة التي يلتقي فيها "**أوستاش**" وأخته بأستاذهما "**لورانس براون**" كل يوم كان الدهليز الذي سرت فيه خاليا تماما ، ولم أسمع فيه حركة أو صوتا . ووجدت نفسي أمام قاعة الحمام التي قضى فيها رجال البوليس وقتا طويلا للبحث عن آثار ترشدهم إلى اليد التي سكبت مادة "**الإيزيرين**" في قنينة "**الأنسولين**" ، ولم أقو على مقاومة الفضول الذي استولى علي فدلفت إلى الحمام وراعني ما رأيت فيه .. كان حافلا بأحدث ما تفتق عنه الذهن البشري من وسائل الترف ، وكان كل ما يعنيني فيه هو صندوق الأدوية ، والعقاقير الطبية، ففتحته فإذا هو صيدلية صغيرة حافلة بمختلف الأدوية وبينها عدد كبير من قناني "**الأنسولين**" بعضها مليء وبعضها فارغ .. ومحتوياته مرتبة ومنظمة بحيث يسهل تناول أي دواء للعلاج .. أو القتل .. لم يرني أحد حين دخلت الحمام ، وكان بوسعي أن أسكب محتويات أية

قنينة في قنينة أخرى وأنصرف دون أن يشعر بي أحد ..

لم أقف من هذه الزيارة على جديد ، ولكنها أقنعتني بصعوبة مهمة رجال البوليس في إماطة اللثام عن قاتل "**أزستيد ليونيدس**" ..

وواصلت السير في الدهليز المقفر حتى انتهيت إلى باب غرفة الدرس كما وصفتها لي "**صوفيا**" ..

تريثت أمام الباب وأرهفت أذني وسمعت صوت "**لورانس**" وهو يلقي على تلميذيه درسا في التاريخ .. واكتشفت بعد بضع دقائق أنه مدرس ممتاز ، ولم أدهش لذلك فقد كان "**أرستيد ليونيدس**" رجلا حصيفا يعرف كيف يختار الرجال .. كان "**لورانس**" من أولئك الأساتذة الذين يعرفون كيف ينشطون خيال تلاميذهم ويثيرون اهتمامهم .. وبعد أن فرغ من حديثه عن إحدى حقبات الثورة الفرنسية وأبطالها شرع في إلقاء الأسئلة على تلميذيه ، فكانت إجابات "**جوزيفين**" مضطربة معقدة .. على عكس أخيها "**أوستاش**" الذي كان يجيب بوعي وذكاء ..

ثم سمعت حركة مقاعد داخل القاعة . فهممت بالابتعاد ، ولكن الباب فتح بسرعة وخرجت "**جوزيفين**" وتبعها "**أوستاش**" فحيتني الأولى ومضت مسرعة بينما توقف "**أوستاش**" وبدا وكأنه دهش لوجودي في ذلك المكان وسألني بأدب عما إذا كنت أريد شيئا، فأجبته ببعض الارتباك بأنني كنت أود أن أتفقد قاعة الدراسة .. قال :

– ظننت أنك تعرفها .. إنها غرفة عادية ليس فيها ما يثير الاهتمام .. وقد كنت ألعب فيها وأنا طفل ولا يزال بها بعض اللعب .. وفتح الباب ، ورأيت "**لورانس**"واقفا أمام منضدة فما أبصرني حتى احمر وجهه وقال كلمة على سبيل التحية وغادر الغرفة مسرعا .. فقال "**أوستاش**" وهو يبتسم :

– إنك أخفته .. إن أبسط شيء يرعبه ..

– ولكنه أستاذ ممتاز ..

– لا أستطيع أن أقول العكس ..

– هل تتلقى نفس الدروس مثل "**جوزيفين**" ؟

– لا بالتأكيد .. إنها لا تتعلم اللغة اللاتينية ولا الحساب ..

– ولكن يخيل إلي أنها أذكى من سنها ..

– أتظن ذلك ؟ .. إنني أرى العكس ، إنها غبية .. وقد أطاحت الروايات البوليسية بصوابها .. فهي تتنصت على الأبواب وتكتب ملاحظات في دفتر أسود صغير يخصها وتزعم أنها اكتشفت أشياء كثيرة .. ولكنها دعية حمقاء وقد قلت لها إن أمي ستحسن صنعا حين ترسلها إلى "**سويسرا**" ..

– هل كنت تحب جدك يا "**أوستاش**" ؟

– كان رجلا أنانيا وغير اجتماعي .. وقد قال "**لورانس**" إن أمثاله يجب أن يختفوا ..

– وهذا ما فعله ..

– وخير ما فعل .. أي متعة في الحياة يجدها من كان في مثل سنه ؟

وفي هذه اللحظة عاد "**لورانس**" وراح يرتب بعض الكتب على المنضدة ، ولاحظت أنه ينظر نحوي خلسة من ركن عينه وأخيرا نظر إلى ساعته وقال :

– "**أوستاش**" .. هل لك أن تعود في الساعة الحادية عشرة تماما ؟

– حسنا يا سيدي .. وانصرف الصبي وهو يصفر بشفتيه ..

واستمر "**لورانس**" في ترتيب الكتب ، وهو يبلل شفتيه بلسانه بين الفينة والفينة ولم يكن لدي شك في أنه إنما قد عاد خصيصا للتحدث إلي .. ويبدو أنه قرر آخر الأمر أن يتكلم .. قال :

– إلى أين وصلوا ؟

– من ؟

– رجال الشرطة . .

– الحق أنهم لا يطلعونني على نتائج تحرياتهم . .

– كنت أظن أن أباك من كبار رجال الشرطة . .

– هذا صحيح . . ولكنه لا يكشف لي ما ينبغي كتمانه من أسرار . .

– إذن أنت لا تعلم ما إذا . . ولم يوفق إلى الكلمة المناسبة . . وقال بعد تردد قصير :

– هل قرروا القبض على أحد ؟

– لا أعلم على وجه التحقيق . .

– إنك لا تستطيع أن تفهم معنى القلق وتوتر الأعصاب ، فهم يجيئون ويذهبون ويلقون أسئلة لا صلة لها بالموضوع . صمت مرة أخرى . . وطال صمته . . إلى أن قال :

– إنك كنت موجودا يوم أدلى المفتش بتلك الملاحظة الفظيعة عني أنا والسيدة "ليونيدس" . أليس كذلك؟ . . ماذا كان بوسعي أن أقول ؟ وكيف السبيل إلى انتزاع الأفكار القذرة من أذهان الناس ؟ . . وماذا كان باستطاعتي أن أفعل لأثبت خطأهم ؟ . . وكل ذلك؛ لأنها كانت أصغر سنا من زوجها ! قلبي يحدثني بأن في الأمر مؤامرة . .

– مؤامرة ! . . هذا شيء جديد أسمعه لأول مرة . .

– إنني لم أظفر قط بعطف آل "ليونيدس" . . كانوا دائما ينظرون إلي من عل . . وكنت أشعر بأنهم يحتقرونني . . لا لشيء إلا لأنهم أغنياء . . وأنا لا شيء . . مجرد مدرس حقير . . لقد دبر "ليونيدس" الأمر بحيث تقع الشبهة علي . . إنه أراد دماري . .

هز كتفيه وعاد إلى كتبه يرتبها بأصابع مرتجفة ورأيت أن من الأفضل أن أنسحب، فغادرت الغرفة، وسرت في الدهليز الذي سلكته عند قدومي

وفجأة، فتح باب إلى يساري .. ورأيت "**جوزيفين**" تظهر بغتة أمامي .. سألتها :

– من أين جئت ؟

فنظرت خلال الباب الذي قدمت منه .. وأومأت إلى غرفة كان بها فيما مضى خزان للماء .. قالت :

– كنت في غرفة الخزان ..

– وماذا تفعلين هناك ؟

– كنت أقوم ببعض الأعمال البوليسية .. ونظرت إلى يديها وقالت ..

– يجب أن أستحم ..

ومضت إلى حمام قريب .. وما إن وصلت إلى بابه حتى استدارت وقالت تحدثني :

– يخيل إلي أن جريمة القتل التالية لن تتأخر طويلا ..

– أي جريمة قتل ثانية ؟

– في كل قصة بوليسية توجد دائما جريمة ثانية يكون الضحية فيها شخصا يتعين إسكاته؛ لأنه يعرف أشياء يجب ألا تقال ..

– إنك تسرفين في قراءة القصص البوليسية يا "**جوزيفين**" ولكن الحياة شيء آخر يختلف تماما عما في القصص .. وإذا كان في هذا البيت من يعرف أسرارا .. فإنه لن يبوح بها .. فقالت وهي تهم بدخول الحمام :

– يحدث أحيانا أن يكون الشخص المطلوب إسكاته لا يعلم بأنه يعرف أسرارًا تهم الآخرين ..

*****

وبينما أنا أفكر فيما قالته هذه الصغيرة الخبيثة .. إذا بـ "بريندا" تخرج من

قاعة الاستقبال وتقبل نحوي .. قالت وهي تضع يدها على كتفي بلطف وتنظر في عيني :

– هل من جديد ؟ كان نفس السؤال الذي ألقاه علي "لورانس" من قبل ولكن بأسلوب آخر ؟ هززت رأسي سلبا ، فتنهدت وقالت :

– ماذا سيحدث في التحقيق الذي سيجري غدا ؟

– لا شيء .. فاطمئني .. سيطلب البوليس إرجاء التحقيق حتى تتهيأ لهم أدلة جديدة .. ولكنني أتوقع أن تتحرك الصحف ، إنها اقتصرت حتى الآن على نشر نبإ الوفاة .. ولكن إرجاء التحقيق سيطلق الصحفيين في أعقاب أفراد الأسرة..

– هذا مخيف ..

– لو كنت مكانك يا "بريندا" لامتنعت عن مقابلة الصحفيين، أو التحدث إليهم لقد آن لك أن تجدي من ينصحك ويرشدك إلى ما يجب عمله .. إنك تحتاجين إلى رجل قانون يظهرك على الإجراءات ويرشدك إلى ما يجب أن تقوليه أو تفعليه .. إنك تقفين وحدك يا "بريندا" .. فهل تعلمين ذلك ؟ فضغطت كتفي وقالت :

– نعم يا "تشارلس" .. إنني أعلم .. فشكرا لك .. هبطت درج السلم وأنا أشعر بالرضا عن نفسي ورأيت "صوفيا" تقف بالباب... قالت حينما رأتني :

– لقد تحدثوا تليفونيا من "لندن" يا "تشارلس" .. إن أباك يرغب في مقابلتك..

– في "اسكتلنديارد" ؟

– نعم ..

– ترى ماذا يريد مني ؟

- 16 -

كان أبي يجلس أمام مكتبه ، و"**تافرنر**" يطل من النافذة ، و"**جيتسكيل**" يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا ، والجو مفعم بالتوتر .. قال المحامي :

– من كان يتصور أنه لا يثق بي إلى هذا الحد ؟ وقال أبي حينما رآني :

– أهذا أنت يا "**تشارلس**" ؟ إن لدينا أنباء جديدة .. فنظرت إلى "**تافرنر**" ورأيته يبتسم .. قال أبي :

– سأوضح لك الموقف بإيجاز ، فقد تلقى السيد "**جيتسكيل**" صباح اليوم رسالة غريبة من رجل يدعى "**اجروبولو**" وهو صاحب مطعم معروف باسم مطعم "**الفوس**" .. والسيد "**اجروبولو**" يوناني الأصل كما يدل على ذلك اسمه ويبدو أن "**أرستيد ليونيدس**" أسدى إليه معروفا عظيما في وقت ما ، جعله يشعر بأنه مدين له مدى الحياة .. وكان "**ليونيدس**" من ناحيته يثق به ثقة عظيمة .. وقد قال "**اجروبولو**" في رسالته: إن "**ليونيدس**" أودع لديه منذ نحو عام ظرفا مغلقا وطلب إليه أن يرسله إلى السيد "**جيتسكيل**" عقب وفاته ، وفي حالة وفاة "**اجروبولو**" أولا ، يقوم ابنه بهذه المهمة .. واستطرد "**اجروبولو**" في رسالته قائلا: "إنه كان مريضا بالتهاب رئوي فلم يعلم بوفاة "**أرستيد ليونيدس**" إلا منذ يومين .. ولذلك بادر إلى إرسال الظرف المختوم إلى السيد "**جيتسكيل**" .. »

وقد قرأ السيد "**جيتسكيل**" رسالة "**اجروبولو**" .. وفض الغلاف المرفق بها، وما كاد يرى محتويات الغلاف المختوم .. وهي عبارة عن رسالة من "**ليونيدس**" مرفقا بها وصيته .. وهي وصية قانونية : تحمل توقيع "**ليونيدس**" واثنين من الشهود .. حتى وجد من واجبه أن يتصل بنا وهنا صاح "**جيتسكيل**"

– إنها غير الوصية التي كتبتها نزولا على رغبة "**ليونيدس**" نفسه .. وقد كتبها بخط يده ووضعها في الغلاف وختمه .. وذلك أسوأ ما يفعله رجل أعمال .. فقال "**تافرنر**" ليرفه عنه :

– لا تنس يا سيد "**جيتسكيل**" أن الرجل كان قد بلغ من السن عتيا ، وساء تقديره للأمور .. واستطرد أبي قائلا :

– وقد اتصل بنا السيد "**جيتسكيل**" وأنبأنا بمضمون الوصية فطلبت إليه الحضور لمقابلتنا .. فسألت :

– وهل هناك خلاف بين الوصيتين ؟.. فقال "**جيتسكيل**" :

– اختلاف كبير .. وصمت لحظة ثم قال :

– أعتقد أنك على صلة وثيقة بالآنسة ... بالآنسة "**صوفيا**" ؟

– إنني أرجو الاقتران بها ، ولكنها تأبى الحديث في موضوع الزواج في الوقت الحاضر ..

– إذن فاعلم أن السيد "**ليونيدس**" قد أوصى لزوجته في الوصية بمبلغ مائة وخمسين ألف جنيه .. وأوصى ببقية ثروته لحفيدته "**صوفيا ليونيدس**" .. ألجمتني الدهشة بضع ثوان ، وهتفت أخيرا :

– أوصى بكل ثروته لـ"**صوفيا**" .. هذا عجيب ! .. وهل أوضح أسباب هذا القرار؟

– قال في رسالته التي أرفقها بالوصية إن "**صوفيا**" هي أقدر ذراريه على احتمال مسؤوليات الأسرة التي كانت طوال حياتها تحتاج إلى شخصية قوية تسهر عليها وترعى مصالحها . وتناول بالتحليل شخصيات الآخرين فقال : إن "**روجر**" شديد الاندفاع ولا يمكن الركون إليه في الحكم على الأمور وإن "**فيليب**" يفتقر إلى الثقة بالنفس .. بينما "**أوستاش**" لا يزال حدثا ومن السهل التأثير فيه .. أما "**صوفيا**" فإنها ذكية ورزينة وشجاعة ، ولها كل الصفات التي تكفل إسعاد

الأسرة وإسعاد "**أديث دي هافيلاند**" التي لا يسعه إلا أن يذكر بالشكر وعرفان الجميل ما أبدته طوال حياتها من إخلاص لأفراد الأسرة .. فقلت بإعجاب:

– حقا لقد كان رجلا بعيد النظر صادق الفراسة .. فقال "**جيتسكيل**" :

– إنني أقر كل كلمة جاءت في رسالته .. ولكنني أعيب عليه عدم ثقته بي بعد خدمة ثلاثة وأربعين عاما .. فقال أبي :

– هذا صحيح .. ولكن يبدو أنه كان رجلا معقدا يطيب له حسم الأمور بطريقة غير مألوفة .. وفي هذه اللحظة دق جرس التليفون فتناول أبي السماعة وأصغى ثم قال:

– هذه مكالمة لك يا "**تشارلس**" .. من صديقتك .. فتناولت السماعة وهتفت:

– "**صوفيا**" ؟

– أهذا أنت يا "**تشارلس**" ؟.. إنني أحدثك الآن بشأن "**جوزيفين**" .. كان صوتها متهدجا .. فصحت :

– ماذا بها ؟

– أصيبت بضربة في رأسها ربما تقضي عليها ..

- 17 -

بعد بضع دقائق ، كنت أنا والمفتش "**تافرنر**" في سيارة تنهب بنا الأرض في الطريق إلى ضاحية "**سونيلي دين**" .. وتذكرت وأنا أستعرض أحداث الأيام الأخيرة ما قالته "**جوزيفين**" وهي تغادر قاعة خزان الماء عن الجريمة الثانية المرتقبة . لا شك أن الطفلة المسكينة لم تتوقع أن تكون هي ضحية تلك الجريمة الثانية.. وكانت "**صوفيا**" تنتظرنا بباب البيت .. فقالت لنا إن

"**جوزيفين**" قد نقلت بسيارة الإسعاف إلى المستشفى وإن الدكتور "**جراي**" سيفحصها بالأشعة ويخطرهم بنتيجة الفحص ، فسألها "**تافرنر**" :

– ولكن كيف حدث ذلك ؟ فاقتادتنا إلى غرفة مهجورة خلف البيت وقالت :

– هذه الغرفة تستخدم كمخزن للأدوات المهملة كالخراطيم والفؤوس وغيرها مما يستعمل في الحديقة .. وقد اعتادت "**جوزيفين**" التردد عليها بين وقت وآخر لتتأرجح على بابها الخشبي .. كانت غرفة صغيرة مظلمة مَلأى بالمقاعد الخشبية والخراطيم المستهلكة وقطع الأثاث التالفة . فأشارت "**صوفيا**" إلى تمثال صغير من الرخام ملقى على الأرض بجوار الباب وقالت :

– لابد أن بعضهم وضع هذا التمثال على الحافة العليا للباب فلما أرادت "**جوزيفين**" التأرجح على الباب كالعادة سقط التمثال على رأسها .. فقال "**تافرنر**" :

– إنها حيلة متناهية في السهولة ..

وحرك الباب بيده ثم نظر إلى التمثال وسأل :

– هل مسه أحد ؟.. فأجابت **صوفيا** :

– لا .. لم أسمح لأحد بأن يمسه ..

– أحسنت صنعا .. ومن الذي عثر على الفتاة ؟

– أنا .. لقد انتظرناها ساعة الغداء فلم تحضر .. فشرعنا نبحث عنها وتذكرت "ناني" أنها رأتها تخرج إلى الحديقة وتسير في هذا الاتجاه .. فقالت لي إنها تعتقد أنها ذهبت لتتأرجح على الباب وخيل إلي أنها على صواب فجئت إلى هنا للبحث عنها ..

– هل اعتادت التأرجح على هذا الباب ؟

– نعم .. وأعتقد أن الجميع يعلمون ذلك ..

– ألا يستطيع من في البيت أن يرى ما يحدث هنا ؟

– نعم لا يستطيعون ..

– إذن فقد كان من السهل على أي إنسان أن يتسلل إلى هذه الغرفة ويضع هذا الفخ .. ولكن نجاح تدبيره لم يكن مؤكدا .. قال ذلك وحرك الباب برفق واستطرد قائلا :

– كانت مسألة حظ .. وكان من الممكن جدا أن يسقط التمثال فلا يصيبها .. بل إن احتمالات الفشل تفوق كثيرا احتمالات النجاح .. كل ما هنالك أن "**جوزيفين**" كانت سيئة الطالع فسقط التمثال على رأسها ..

وانحنى .. ونظر إلى عدة ثقوب في الأرض وقال :

– يبدو أن الفاعل قام بعدة تجارب قبل أن يتمكن من موازنة التمثال فوق الحافة العليا للباب .. ألم تسمعوا شيئا وأنتم بالبيت ؟ فأجابت "**صوفيا**" :

– نعم ، لم نسمع .. وأنا شخصيا لم أشك في الأمر إلى أن رأيتها ممددة على الأرض والدم يسيل من جرح عميق في رأسها .. فأشار "**تافرنر**" إلى شملة من الصوف صارخة الألوان ملقاة على الأرض وسأل :

– أهذه شملتها ؟..

– نعم .. فتناول "**تافرنر**" الشملة وأمسك بها التمثال وهو يقول :

– قد تكون عليه بصمات أصابع .. ولكني أشك في ذلك .. ماذا تفعل يا "**تشارلس**" ؟

– كنت أنظر إلى مقعد خشبي رأيت على قاعدته بعض قطع من الطين ، فقال "**تافرنر**" :

– هذا عجيب ! يبدو أن بعضهم وقف فوق هذا المقعد وحذاؤه ملوث بالوحل .. ترى لماذا ؟ ثم التفت إلى "**صوفيا**" وسأل :

– متى عثر على "**جوزيفين**" في هذا المكان ؟

– حوالي الساعة الواحدة وخمس دقائق ..

– وكم كانت الساعة حين رأتها "**ناني**" تخرج إلى الحديقة ؟

– قبل ذلك بنحو عشرين دقيقة ..

– إذن فالحادث وقع خلال فترة محدودة لا تتجاوز 25 دقيقة .. عدنا إلى البيت ، ورافقت "**صوفيا**" إلى قاعة المكتبة ، وهناك كان "**فيليب**" في مقعده المألوف وهو شاحب الوجه شارد الذهن .. بينما جلست "**ماجدا**" على الأرض وأسندت رأسها إلى ركبة زوجها وراحت تذرف الدموع في هدوء..

سألت "**صوفيا**" أباها عما إذا كان المستشفى قد اتصل تليفونيا، فهز "**فيليب**" رأسه سلبا ، وقالت "**ماجدا**" :

– لماذا لم يدعوني أذهب مع ابنتي الصغيرة المسكينة ؟.. أنا أعلم أنها ستموت.. فتوسل إليها "**فيليب**" أن تصمت .. ورأيت من اللياقة أن أنسحب ، فخرجت في هدوء وانطلقت أبحث عن "**ناني**".. وجدتها في المطبخ تبكي.. قالت :

– إن الأرواح الشريرة تملأ هذا البيت يا سيد "**تشارلس**" لقد قتل السيد العجوز أولا .. وها هي ذي الصغيرة المسكينة على شفا الموت وخطر لي خاطر فسألتها :

– هل تعلمين أين كانت تخفي الدفتر الأسود الصغير الذي كانت تسجل فيه خواطرها وأفكارها ؟

– لا يا سيدي .. ولكنني أعلم أنها كانت تحرص عليه وتحيطه بسرية تامة..

– هل كان معها عندما عثرتم عليها بعد الحادث ؟

– لا يا سيدي ..

– ترى هل أخذ بعضهم هذا الدفتر .. أم أنه لا يزال مخبأ في غرفتها ؟

وخطر لي أن أبحث عنه ، ولكنني لم أكن لأعرف موقع غرفة "**جوزيفين**" ..

ووقفت في الدهليز حائرا .. وإذا بي أسمع صوت "**تافرنر**" وهو يقول :

– تعال يا "**تشارلس**" ، إنني في غرفة "**جوزيفين**" .. فذهبت إلى مصدر الصوت، وجمدت في مكاني على عتبة الباب .. كانت الغرفة أشبه بمكان مر به إعصار ..

كل شيء فيها نزع من مكانه .. حشية الفراش مزقت إربًا إربًا، الأدراج خلعت من الدواليب وبعثرت محتوياتها .. اللوحات ألقيت على الأرض وحطمت إطاراتها، المقاعد مقلوبة، الكتب والأوراق مبعثرة . لم أصدق ما رأته عيناي وهتفت :

– يا إلهي ! ما معنى هذا ؟

– ما رأيك ؟

– رأيي أن بعضهم كان يبحث هنا عن شيء ..

– ذلك ما أعتقده ..

–ولكن لا يمكن أن يدخل إنسان ويفعل كل هذا دون أن يراه أو يسمعه أحد .

– ليتني أعلم فقط عن أي شيء كان يبحث ؟ وهل وجد ما كان يبحث عنه أم لا؟ ونشطت هذه الكلمات ذاكرتي ، وتبلورت أفكاري بغتة عندما سألني "**تافرنر**" متى رأيت "**جوزيفين**" آخر مرة .. فغادرت المكان مسرعا ، وهرولت إلى غرفة خزان الماء ، وكان سقف الغرفة منخفضا فاضطررت أن أحني قامتي ..

إنني رأيت "**جوزيفين**" آخر مرة وهي تخرج من هذه الغرفة ، وعندما سألتها ماذا كانت تفعل أجابت بأنها كانت تقوم ببعض أعمال البوليس السري ..

فماذا كانت ترجو أن تجد في هذه الغرفة التي يخيم عليها نسيج العنكبوت؟ أكبر الظن أنها لم تكن تبحث في الغرفة عن شيء ، وإنما كانت تخفي بها شيئا ..

- 18 -

وبحثت في الغرفة .. ولم تستغرق عملية البحث أكثر من ثلاث دقائق .. دسست يدي وراء خزان الماء .. فوجدت حزمة صغيرة ملفوفة في قطعة من الورق الأسمر .. كانت حزمة رسائل .. فتناولت أولى هذه الرسائل وقرأت فيها ما يلي :

"أنت لا تعلم أيها العزيز"**لورانس**" ، كم كانت سعادتي أمس وأنا أسمع الأشعار التي تلوتها علينا ..

كنت تتجنب النظر إليَّ .. ولكني كنت أعلم أنك توجه الكلام إليَّ وإليَّ وحدي.. قال لك "**أرستيد**" : «أنت قارىء ممتاز» .. ولكنه لم يلاحظ الانفعالات التي تجيش في صدرك وصدري .. أنا واثقة أيها الحبيب بأن كل شيء سينتهي قريبا على ما نروم ..

وإني لأشعر بالارتياح كلما فكرت في أنه سيموت دون أن يعرف ما بيننا .. وسيموت سعيدا .. لقد كان كريما معي .. ولذلك لا أريد له أن يتألم ..

إنني أعتقد أن الإنسان لن يجد متعة في الحياة بعد أن يتجاوز الثمانين .. ولذلك أرجو ألا يطول انتظارنا وأن يجمع الحب بيننا عما قريب ..

كم سأكون سعيدة حين أدعوك : (يا زوجي العزيز) ! .. لقد خلق كل منا للآخر أيها الحبيب .. وأنا أحبك .. أحبك .. أحبك.."

كان للرسالة بقية ولكني شعرت بالاشمئزاز والاستنكار فلم أمض في قراءتها. وعدت إلى "**تافرنر**" وقدمت إليه حزمة الرسائل وأنا أقول :

– لعل هذه هي ما كانوا يبحثون عنها ..

فقرأ "**تافرنر**" بضع فقرات من الرسالة الأولى ، ونظر إلي وهو يبتسم وقال :

– أظن أن هذه الرسالة تحسم الأمر بالنسبة إلى "**بريندا**" و"**لورانس**" ..

– إنني أدهش الآن كلما تذكرت كيف تقلص عطفي على "**بريندا**" حالما قرأت رسائلها لـ "**لورانس**" .. .. فهل كان ذلك؛ لأنها كذبت علي ؟.. أم أنها أثبتت أنني إنسان يسهل خداعه ؟.. لا أعلم .. فإنني لا أفهم كثيرا في علم النفس .. شيء واحد لا أغفره لـ "**بريندا**" .. هو أنها في محاولتها التخلص من تبعات جريمتها الأولى ، قد أقدمت بنذالة على الفتك بطفلة صغيرة لا حول لها ولا قوة .

قال "**تافرنر**" :

– الرأي عندي أن "**لورانس**" هو الذي أقدم على هذه الفعلة .. وذلك يفسر أمرا أثار حيرتي ..

– ما هو ؟

– دعنا نستعرض الحقائق بطريقة منطقية .. كانت الرسائل في حوزة "**جوزيفين**" وكانت الخطوة الصحيحة .. هي محاولة استرداد هذه الرسائل فإذا نجحت المحاولة انتهى كل شيء .. إذ مهما تكلمت الفتاة بعد ذلك فإن أحدا لن يصدقها؛ لأنها لا تملك ما يثبت كلامها .. وسوف يقال حينئذ: إنها اخترعت القصة كلها ..

ولكنهم لم يجدوا الرسائل .. فأصبح من الضروري التخلص من الفتاة لمنعها من الكلام .. وكان معروفا أن الفتاة تحب التأرجح على باب الغرفة المهجورة ..

وإذن فالطريقة المثلى للتخلص منها ، هي انتظارها في الغرفة المهجورة وضربها بقطعة من الحجر أو الحديد .. وبذلك ينتهي الأمر .. ولكن الجاني لم يفعل ذلك .. وإنما لجأ إلى طريقة غير مؤكدة النتائج فكلف نفسه مؤونة موازنة الحجر فوق الباب ليسقط على الفتاة فيصيبها أو لا يصيبها.. فلماذا ؟

– والجواب ؟

– الجواب يتوقف على شخصية الجاني .. ونحن نعلم أن "**لورانس براون**" يفزع من أعمال العنف والقسوة . فمن المستحيل عليه أن يتوارى خلف الباب ليهشم رأس فتاة صغيرة .. ولكنه يستطيع موازنة الحجر على الباب ، ليؤدي الحجر مهمته بينما هو بعيد عن مكان الحادث ..

– فهمت .. على غرار عملية استبدال "**الأنسولين**" بـ"**الإيزيرين**" ..

– تماما ..

– هل تعتقد أن "**بريندا**" كانت على علم بهذا التدبير ؟

– من المحتمل جدا أن يكونا قد اشتركا معا في التخطيط .. ومن المحتمل أيضا أن تكون هي وحدها التي فتكت بزوجها .. فالسم هو الوسيلة التقليدية للتخلص من الأزواج العجائز .. ولكنني أراهن على أنها لم تنصب ذلك الفخ لـ"**جوزيفين**" .. فالنساء لا يحفلن بالوسائل الميكانيكية أو الآلية التي من هذا النوع .

– مهما يكن من أمر فإن الرسائل فيها الكفاية لإدانة العاشقين .. ولا يبقى بعد ذلك إلا أن تتماثل "**جوزيفين**" للشفاء .. لكي تعود الطمأنينة والسعادة إلى هذا البيت . ثم غمز بعينه واستطرد قائلا :

– أظن أن من المثير أن يكون الإنسان خطيبا لفتاة تملك بضعة ملايين من الجنيهات .. وكنت في غمرة الأحداث قد نسيت كل شيء عن الوصية فقلت :

– إن "**صوفيا**" لم تعلم بعد بمضمون الوصية فهل أخبرها ؟

أعتقد أن "**جيتسكيل**" سيجتمع بالأسرة غدا ليتلو عليها نص الوصية .

وفي مساء ذلك اليوم ، تلقت "**صوفيا**" من المستشفى نبأ سارا ..

إن إصابة "**جوزيفين**" ليست من الخطورة في شيء كما ظن الجميع ، وعما

قريب تتماثل للشفاء .. ولكن زيارتها ستظل ممنوعة على الجميع .. حتى أمها...

قالت "صوفيا" وهي تنهي إلي هذا النبأ :

– وخاصة أمها .. ذلك ما أكدته في حديثي مع الدكتور "جراي" . ويبدو أنها رأت نظرة الاستنكار التي ارتسمت في عيني .. لأنها قالت :

– لماذا الاستياء يا عزيزي ؟ فقلت :

– يا إلهي ! .. إنها أم ..

– يسرني أن ترى في الأمهات الرأي الذي كان شائعا فيما مضى .. ولكنك لا تعرف أمي يا "تشارلس" .. إنها لطيفة جدا .. ولكنها لم تذهب لزيارة "جوزيفين" إلا لكي تلعب دورا دراميا أمام فراشها .. وليست هذه هي الطريقة المثلى للتعجيل باندمال الجرح ..

– إنك تفكرين في كل شيء أيتها العزيزة ؟

– وماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك ؟ .. لابد من شخص يرعى هذا البيت وأهله بعد رحيل جدي . فلم أجب ، ولكني لم أتمالك من الإحساس بالإعجاب بحكمة العجوز وصدق فراسته .. إنه لم يخطئ حين وقع اختياره على "صوفيا" لتحمل المسؤولية من بعده..

- 19 -

كنت مع "صوفيا" و"بريندا" في الحديقة ذات صباح حين وقفت بالباب إحدى سيارات الشرطة وخرج منها المفتش "تافرنر" والضابط "لام" . وكانت "بريندا" قد انضمت إلينا قبل بضع دقائق وهي تقول :

– إنني سأجن إذا لم أخرج في الهواء الطلق ، ولكني كلما تجاوزت سور

الحديقة حاصرني الصحفيون وسدوا عليَّ الطريق .

فأجابتها "**صوفيا**" بأن الصحفيين سوف يتعبون من التربص بأفراد الأسرة وينصرفون . فقالت "**بريندا**" فجأة وبلا مقدمات :

– حدثيني يا "**صوفيا**" .. هل أنهيت عمل "**لورانس**" ؟ ولماذا؟

– لسبب واضح ، هو أننا سنرسل "**جوزيفين**" إلى "**سويسرا**" وسنلحق "**أوستاش**" بإحدى مدارس "**لندن**" .

– إن "**لورانس**" حزين .. ويعتقد أنك لا تثقين به . وفي هذه اللحظة وقفت سيارة الشرطة بالباب وهبط منها "**تافرنر**" وزميله فهتفت "**بريندا**" في فزع :

– لماذا عادا؟ وماذا يريدان ؟ ولاحظت أنها ترتجف ..

لم أكن قد ذكرت شيئا لـ "**صوفيا**" عن الرسائل التي وجدتها خلف خزان الماء ولكنني كنت أعلم أنها أُرسلت إلى النائب العام . واقترب "**تافرنر**" منا ووقف أمام "**بريندا**" وقال :

– إنني أحمل أمرا بالقبض عليك يا سيدتي .. أنت متهمة بأنك في يوم 19 أيلول (سبتمبر) الماضي قتلت زوجك "**أرستيد ليونيدس**" بمادة "**الإيزيرين**" السامة ، ومن واجبي أن أحذرك بأن كل ما ستقولينه سيسجل عليك وستحاسبين عليه عند محاكمتك .

فانهارت "**بريندا**" على الفور وتعلقت بساعدي وقالت وهي تبكي إنها بريئة، وإنها ضحية مؤامرة وتوسلت إلي ألا أدع "**تافرنر**" يقبض عليها وصرخت:

– أنا لم أفعل شيئا .. لم أفعل شيئا على الإطلاق ..

كان الموقف رهيبا فحاولت أن أهدئ روعها وقلت لها إنني سأتفق مع محام للدفاع عنها ، وإنها يجب أن تتمالك نفسها وتتسلح بالهدوء ورباطة الجأش.

وتأبط "**تافرنر**" ساعدها وقال :

– هلمي بنا يا سيدتي .. فنظرت إليه وسألت :

– و"**لورانس**" ؟

– السيد "**لورانس**" ؟ .. معي أمر باعتقاله أيضا . فكفت عن المقاومة ، وسارت مع "**تافرنر**" ودموعها تنساب على خديها في هدوء . وفي نفس اللحظة ، رأيت "**لورانس براون**" يخرج من البيت برفقة "**لام**" ، واستقل الجميع السيارة التي انطلقت بهم مسرعة في الطريق إلى "**لندن**" .

*****

تنفست الصعداء ونظرت إلى "**صوفيا**" . كانت ترتجف ووجهها شديد الشحوب. قالت :

– هذا مخيف ! يجب أن نجد لها أفضل المحامين .. ولكن لماذا اعتقلوها الآن؟ ظننت أنه لا توجد أدلة .

– إنهم وجدوا بعض الرسائل .

– رسائل غرامية تبودلت بينهما ؟

– نعم .. فقالت مرة أخرى :

– هذا مخيف ! ..

– نعم .. كل هذا مخيف .. ولكن لا ضرورة للتعقيب عليه.

– ألم تنته الأمور على النحو الذي تمنياه ؟ لقد ظهرت الآن براءة آل"**ليونيدس**" وثبت أن أحدا منهم لم يكن لديه دافع لارتكاب الجريمة . لن ندعها تغيب عن أنظارنا بعد الآن .. على الرغم من أن ذلك لم يعد ضروريا.

– هذا صحيح .. ولكن لم يكن لديك علم بمضمون الوصية .

– بل كنت أعلم .

– أحقًا ! وشعرت بالدم يجمد في عروقي . قالت :

– كنت أعلم منذ وقت طويل أن جدي أوصى لي بكل ثروته .

– ولكن .. كيف علمت ؟

– هو نفسه صارحني بذلك قبل أسبوعين من وفاته .. قال لي ذات يوم وبغير مقدمات :

– "صوفيا" .. "أنت التي سترثين كل ثروتي .. وأنت التي ستعنين بأمر الأسرة بعد رحيلي.."

– ولكنك لم تنبئيني بذلك .

– ذلك لأنني سمعتهم يتحدثون عن وصية أخرى قيل إن جدي وقع عليها بإمضائه على مرأى منهم . فظننت أنه عدل عن فكرته .. وخشيت أن أثير الموضوع .

– لماذا ؟

– خفت أن أتهم بارتكاب الجريمة .

- 20 -

وقفت السيارة بالباب ، فهتفت في سرور :

– ها هي ذي "جوزيفين" قد عادت إلينا . كانت الطفلة تبدو طبيعية تماما.. فيما عدا أنها كانت معصوبة الرأس . قالت على الفور :

– أريد أن أرى الأسماك الحمراء .. وهرولت إلى حوض الأسماك فصاحت بها أمها :

– أليس من الأفضل أن تستريحي في فراشك قليلا أيتها العزيزة وأن تتناولي بعد ذلك صحفة من الحساء ترد إليك صحتك ؟ فأجابت الطفلة :

– لا تقلقي يا أماه فإنني بخير .. ثم إنني لا أحب الحساء .. وكنت أعلم أنه كان من الممكن أن تغادر "**جوزيفين**" المستشفى قبل بضعة أيام ولكن المفتش "**تافرنر**" أوصى ببقائها هذه الأيام حرصا على سلامتها .. وحتى لا تعود إلى البيت قبل اعتقال المتهمين .. وزوال كل خطر محتمل .. قلت لـ"**ماجدا**" :

– إن الهواء الطلق لن يضرها .. سألحق بها وأسهر عليها . ولحقت بـ"**جوزيفين**" عند حوض الأسماك وقلت أحدثها :

– لقد حدثت أشياء كثيرة في غيابك .

فنظرت إليَّ من ركن عينها ولم تجب .. وراحت تتابع حركة الأسماك في الماء .

قلت لها :

– ألا يهمك أن تعرفي ما حدث هنا في أثناء غيابك يا "**جوزيفين**" ؟

– أظن أنني أعرف .

– هل تعلمين أنهم وجدوا وصية أخرى لجدك ، أوصى فيها بكل ثروته لـ"**صوفيا**" ؟ فهزت كتفها وقالت :

– أنبأتني أمي بأمر هذه الوصية ولكنني كنت أعلم ..

– هل حدثوك عنها في المستشفى ؟

– لا .. كنت أعلم أن جدي ترك كل ثروته لـ "**صوفيا**" .. فقد قال لها ذلك بنفسه .. فأدركت أنها سمعت بطريقتها المألوفة ما دار من حديث بين "**صوفيا**" وجدها بشأن الوصية . وانتقلت إلى موضوع آخر .. قلت :

– ليتك عجلت بالحضور ، إذن لرأيت كيف ألقى المفتش "**تافرنر**" القبض على "**بريندا**" و"**لورانس**" . وكنت أتوقع أن يثيرها هذا النبأ ولكنها قالت بهدوء :

– لقد رأيت . .

– مستحيل ! . . فقد حدث ذلك قبل حضورك .

– إننا مررنا بسيارتهم ونحن في الطريق إلى هنا . . وكان بالسيارة عدا "**بريندا**" و"**لورانس**" ، كل من المفتش" **تافرنر**" وضابط الشرطة ذي الحذاء اللامع ، فأدركت أنهما اعتقلا . . فقلت معتذرا :

– إنني قدمت الرسائل لـ "**تافرنر**" بعد أن عثرت عليها مخبأة وراء خزان الماء . . كنت أوثر أن تقدميها أنت إليه ، ولكنك كنت في المستشفى .

– الواقع أن غرفة الخزان لم تكن المكان الملائم لإخفاء الرسائل . . وقد حدث ذات يوم أنني رأيت "**لورانس**" خارجا من هذه الغرفة فأدركت أنه أخفى بها شيئا ، وتحقق ظني حين دخلت الغرفة ووجدت الرسائل .

– ولكني ظننت أنك أنت التي . . .

ولم أتم عبارتي ، فقد سمعت "**أديث هافيلاند**" تدعو "**جوزيفين**" . . وتنهدت هذه وقالت :

– يجب أن أذهب . . فلا أحد يستطيع الإفلات من الخالة "**أديث**" .

وأسرعت تعدو في الحديقة إلى حيث كانت "**أديث**" ، فتبادلت معها بضع كلمات . . ثم توارت داخل البيت . وذهبت بدوري إلى "**أديث**" . . كانت تبدو عليها دلائل التعب والإعياء وخيل إلي أن تجعدات وجهها زادت عمقا ووضوحا . وعندما اقتربت منها ، حاولت أن تبتسم وقالت :

– هذه الصغيرة لا يبدو عليها أنها عانت كثيرا مما أصابها . ثم تنهدت وقالت كم أنا سعيدة؛ لأن كل شيء قد انتهى ! . . إنني رأيتهما من نافذتي وشعرت بالرثاء لهما . . وكان "**لورانس**" أشبه بالفأر في المصيدة . . على أنني أرجو أن يتولى الدفاع عن "**بريندا**" محام يأخذ بيدها ويقف إلى جانبها في محنتها .

كان موقفها لا يقل غرابة عن موقف "**صوفيا**" .. فكلتاهما تمقت "**بريندا**" وكلتاهما ترجو أن يبذل المستطاع لكفالة الدفاع عنها .

واستطردت "**أديث دي هافيلاند**" تقول :

– نعم .. يجب أن تهيأ لها كل الفرص وكل وسائل الدفاع الممكنة حتى لا تذهب ضحية ظلم أو خطإ من أخطاء القضاء.. فسألتها :

– و"**لورانس**" ؟.. فأتت بحركة تدل على نفاد الصبر وقالت :

– "**لورانس**" رجل يستطيع أن يتولى أمر نفسه .. أما "**بريندا**" .. فإن "**أرستيد**" لن يغفر لنا إذا ... ولم تتم عبارتها وأردفت :

– لقد حان وقت الغداء فهلم بنا إلى البيت . ولكنني قلت لها :

– إنني أنوي العودة إلى "**لندن**" . فسألت :

– هل ستعود بالسيارة ؟

– نعم .

– هل تأخذني معك ؟.. قيل لي إنه سمح لنا بمغادرة البيت .

– يسعدني أن أصحبك معي . ولكني علمت أن "**ماجدا**" و"**صوفيا**" ستذهبان إلى "**لندن**" بعد ظهر اليوم . ولا شك أنك تفضلين سيارة فارهة كبيرة على سيارتي الصغيرة ذات المقعدين .

– يهمني ألا أذهب معهما .. هلم بنا ولا تخبر أحدا .. فدهشت ، ولكني نزلت على إرادتها ، ولم تتحدث كثيرا في الطريق سألتها إلى أين تريد الذهاب فأجابت :

– إلى شارع "**هارلي**" حيث يوجد كبار الأطباء . وأقلقني جوابها ولكني لزمت الصمت ... صمتت قليلا واستطردت :

– بل من الأفضل أن تتركني أمام مطعم "**دبنهار**" ... سأتناول هناك طعام الغداء ثم أذهب بعد ذلك إلى شارع "**هارلي**" .

– آمل أن ... فلم تدعني أتم عبارتي وقالت :

– لهذا لم أشأ القدوم مع "**ماجدا**" .. إنها تحيل كل شيء إلى مأساة .

– يؤسفني أن أعلم أن ..

– لا تأسف على شيء .. إنني في أفضل صحة .. أريد إجراء بعض الفحوص فقط .

- 21 -

لم أرَ أبي خلال بضعة الأيام الأخيرة . فوجدته مشغولا بقضية أخرى غير قضية "**ليونيدس**" . ولم أجد بدا من الذهاب إلى "**تافرنر**" في مكتبه. وكان أول ما فعلته أنني هنأته على توفيقه في قضية البيت ذي القباب الثلاث ، فتقبل تهنئتي في سرور ولكن لم يبد عليه أنه راض كل الرضا . قلت :

– مهما يكن من أمر فقد اكتملت عناصر الاتهام وانتهى الأمر .

– هل تظن أن المحكمة ستدينهما ؟

– من المتعذر التنبؤ بشيء في مثل هذه القضية .. إنها تختلف عن سائر قضايا جرائم القتل في أن الأدلة التي لدينا ليست أدلة مباشرة .. وسوف يتوقف الكثير على الانطباع الذي يتركه المتهمان في نفوس المحلفين.

– أليست الرسائل دليلا كافيا ؟

– إنها تبدو كذلك لأول وهلة .. ففيها عبارات تشير إلى ما سوف ينعم به العاشقان من السعادة بعد موت العجوز . ولكن بوسع الدفاع أن يزعم أنها عبارات بريئة وأن الزوج كان طاعنا في السن فمن الطبيعي أن تتوقع زوجته وفاته في أية لحظة .

يضاف إلى ذلك أنه يحتمل أن يزعم "**لورانس**" أنه الفاعل الوحيد وأن

"**بريندا**" كانت تجهل كل شيء .. كما يحتمل أن يحدث العكس .. أو أن يعترفا بأن الجريمة ارتكبت باتفاقهما معا .

– ما رأيك أنت ؟

– ليس لي رأي على الإطلاق .. لقد جمعت الحقائق وكتبت تقريرا إلى النائب العام ، وقرر النائب العام أن هناك ما يبرر تقديمهما للمحاكمة .. لقد أديت واجبي .. ولا شأن لي بما يحدث بعد ذلك .

وشعرت من حديثه أنه غير مقتنع تماما بتوجيه الاتهام إلى "**بريندا**" وصديقها .. وكدت أصارحه بذلك لولا أن دق جرس التليفون في هذه اللحظة فتناول "**تافرنر**" السماعة .. وأصغى .. ثم قال لي :

– إنك مطلوب لحديث تليفوني في مكتب أبيك . فهرولت إلى مكتب أبي الذي بادرني بقوله :

– إنها الآنسة "**صوفيا ليونيدس**" .. يبدو أن الأمر عاجل .. فتناولت السماعة ، وأنا أتوقع سماع نبإ اعتداء جديد على "**جوزيفين**" :

– ألو .. "**صوفيا**" ؟

– أهذا أنت يا "**تشارلس**" ؟ .. كان في صوتها نبرة يأس وقلق .. قالت :

– إن المشكلة لا تزال قائمة .. والقاتل ما زال في البيت ..

– ماذا تعنين ؟ .. هل حدث شيء لـ"**جوزيفين**" ؟

– لا .. ليست "**جوزيفين**" .. إنها "**ناني**" .

– "**ناني**" ؟

– نعم .. كانت هناك بقية من (الكاكاو) في قدح "**جوزيفين**" فلم تشأ "**ناني**" إهدارها وشربتها .

– مسكينة "**ناني**" .. هل حالتها سيئة ؟

فقالت "**صوفيا**" بصوت متهدج :

– إنها ماتت . .

- 22 -

أحسست وأنا في السيارة التي أقلتني مع المفتش "**تافرنر**" إلى البيت المشؤوم بنفس الكابوس الذي رزح على صدري في رحلة مماثلة قمنا بها من قبل . ووجدت أنني أردد بين الفينة والفينة بغير وعي :

" إذن فالقاتل ليس "**لورانس**" أو "**بريندا**" " . والواقع أنني لم أقتنع بصحة اتهامهما ، إنما تظاهرت بالاقتناع تجنبا للخوض في احتمالات أخرى .

كنت أعلم أن "**بريندا**" بطبيعة تكوينها ومزاجها الخامل وولعها بالترف والاسترخاء والحياة السهلة لا يمكن أن تتورط في مغامرة غرامية من العنف بحيث تدفعها إلى ارتكاب جريمة قتل . . وأن "**لورانس**" من الطراز الذي يؤثر الحياة في الأحلام والخيالات على معالجة الأمور بالعنف والجريمة . . كل ما هناك أنهما وقعا في فخ فجن جنونهما ذعرا ولم يعرفا كيف يخرجان . . ومن المحقق أن "**بريندا**" تخلصت من الرسائل التي تلقتها من "**لورانس**" لأن أحدا لم يعثر عليها . . أما "**لورانس**" فكان غبيًّا إذ احتفظ برسائلها إليه . . كذلك لم يكن مما يتفق مع تكوين "**لورانس**" وعقليته ومزاجه الشعري أن يدبر ذلك الفخ للقضاء على "**جوزيفين**" . . إن الذي دبر الفخ لا يزال حرا طليقا . .

*****

استقبلنا في البيت شرطي لا أعرفه ، انتحى مع "**تافرنر**" ناحية وراح يتحدث إليه . أما أنا فقد لفت نظري وجود حقائب تدل على أن هناك من يعتزم الرحيل، وعندما هممت بفحصها ، أقبلت علي "**كليمنسي**" وهي

تقول :

– أنت جئت في الوقت المناسب يا "**تشارلس**" لكي نودعك .

– هل اعتزمت على الرحيل ؟

– نعم .. سأرحل مع "**روجر**" وسنقضي هذه الليلة في أحد فنادق "**لندن**" وغدا نستقل إحدى الطائرات. كانت تبتسم .. ولكني رأيت في عينيها نظرة قلق . قلت لها :

– مستحيل أن ترحلا اليوم .

– لماذا ؟

– توجد بالبيت امرأة قتيل .

– لا شأن لنا بموت "**ناني**" .

– ربما .. ومع ذلك ..

– لماذا تقول (ربما) .. لقد كنت مع "**روجر**" في شقتنا لإعداد حقائبنا ولم نغادرها طيلة الوقت الذي كان فيه قدح الكاكاو على مائدة الطعام .

– هل تستطيعين إثبات ذلك ؟

– ألا تكفي أقوالي وأقوال "**روجر**" ؟

– نعم ، لا تكفي .. لا تنسي أنكما زوجان .

– هذا سخيف يا "**تشارلس**" .. إنني و"**روجر**" في طريقنا إلى حياة جديدة فأية مصلحة لنا في قتل امرأة مسكينة مثل "**ناني**" .

– ربما لم تكن هي المقصودة .

– وأية مصلحة لنا في قتل طفلة ؟

– هذا يتوقف على الطفلة .

– ماذا تعني ؟

– إن "**جوزيفين**" ليست طفلة عادية .. فهي تعرف أشياء كثيرة عن كل

إنسان في هذا البيت ، وربما .. ولم أتم عبارتي ، فقد رأيت "**جوزيفين**" مقبلة نحونا وهي تقضم تفاحة وعيناها تتألقان فوق وجنتيها الموردتين .. قالت تحدثنا :

– لقد ماتت "**ناني**" بالسم .. تماما مثل جدي إنه أمر مثير أليس كذلك؟..

فقلت لها بجفاء :

– ألست آسفة على "**ناني**" ؟.. أما كنت تحبينها ؟

– نعم : لم أكن أحبها .. فكثيرا ما كانت تعنفني ..

– ألا يوجد من تحبينه يا "**جوزيفين**" ؟ فأجابت وهي تنظر إلى "**كليمنسي**" من ركن عينها :

– أنا أحب "**أديث**" .. وكان من الممكن أن أحب "**أوستاش**" لو أنه اهتم معي بالكشف عن المجرم الذي فعل كل هذا ..

– من الخير لك أن تكفي عن البحث يا "**جوزيفين**" .. فذلك خطر ..

– لم أعد أحتاج إلى البحث .. فقد عرفت كل شيء . حينئذٍ سمعت آهة عميقة ، فرفعت رأسي ، ورأيت "**أديث**" تهبط السلم وعيناها لا تتحولان عنها . قلت وأنا أمسك بساعد "**جوزيفين**" :

– تعالي يا "**جوزيفين**" .. أريد أن أتحدث إليك .. واقتدتها إلى غرفة صغيرة غير مطروقة ، وأغلقت الباب وطلبت إليها أن تجلس ثم جلست أمامها وقلت لها :

– في استطاعتنا الآن أن نتفاهم يا"**جوزيفين**" .. فحدثيني .. ماذا تعرفين ؟

– أعرف أشياء كثيرة ..

– هل تعرفين من وضع السم في قدح الكاكاو ؟ فأومأت برأسها علامة الإيجاب ..

– وتعرفين من حاول قتلك في غرفة المهملات ؟ فهزت رأسها مرة أخرى ..

– إذن يجب أن تصارحيني بكل ما تعرفين .. وفورا .

– كلا ..

– إن من واجبك أن تضعي كل معلوماتك بين أيدي رجال الشرطة ..

– رجال الشرطة مغفلون ، ولن أقول لهم شيئا ، لقد توهموا أن "**بريندا**" و"**لورانس**" هما القاتلان .. ولكنني لم أكن مغفلة مثلهم .. كنت أعلم أن "**بريندا**" و"**لورانس**" بريئان ..

– "**جوزيفين**" .. إنني أعترف لك بالذكاء .. ولكن ما قيمة هذا الذكاء إذا لم تستمتعي بلذة انتصاراتك ؟.. ألا تعلمين أيتها الحمقاء الصغيرة ، أن حياتك ستظل دائما في خطر طالما تحتفظين لنفسك بالأسرار التي تعرفينها ؟

– أعلم ذلك جيدا ..

– إذن ستقولين لي ما تعرفين .. ولو اضطررت في سبيل ذلك إلى استخدام العنف ..

– في استطاعتي دائما أن أكذب ..

– أعلم ذلك .. ولكن ماذا تفيدين من الكذب ؟.. وإلى متى تريدين الاحتفاظ بمعلوماتك ؟

– أنت لا تفهم .. فإنه من المحتمل جدا ألا أتكلم أبدا . ربما لأنني أحب المجرم أو لأنني أعطف عليه .. هل فهمت ؟ وصمتت لحظة .. كأنما لتمنحني فرصة لاستيعاب وجهة نظرها ، ثم استطردت قائلة :

– على أنني متى قررت الكلام فسوف أفعل ذلك طبقا للأصول فأدعو إلى اجتماع حافل في قاعة فسيحة .. وأحكي كل شيء ، ثم أشير إلى القاتل وأصيح به : أنت القاتل .. ومدت إصبع الاتهام في اللحظة التي دخلت فيها "**أديث دي هافيلاند**" .. وصعدت "**أديث**" الطفلة بعينيها ثم قالت لها إنها

ستخرج معها إلى نزهة بالسيارة.. وفهمت من نظرتها إلى أنها تفعل ذلك كوسيلة لتأمين سلامة الطفلة خلال الساعتين القادمتين .. وابتسمت "**جوزيفين**" ورحبت بالنزهة المرتقبة فقالت "**أديث**" :

– صففي شعرك وأحضري قبعتك ومعطفك فإن الجو يميل إلى البرودة .. هل لك أن ترافقها إلى غرفتها يا "**تشارلس**" ريثما أكتب رسالتين صغيرتين؟..

فاصطحبت "**جوزيفين**" إلى غرفتها وكان في نيتي أن أفعل ذلك حتى ولو لم تطلبه "**أديث**" .. فقد كنت أشعر بأن الطفلة تواجه خطرا لا شك فيه .. وساعدت "**جوزيفين**" في تصفيف شعرها ، وكنت أضع اللمسات الأخيرة في زينتها حين دخلت "**صوفيا**" وأدهشها ما رأت فهتفت :

– أنت هنا يا "**تشارلس**" ؟.. لم أعلم أنك أصبحت (وصيفة) .. وراعني شحوبها .. والهالة السوداء التي تحت عينيها .. وذهبنا إلى "**أديث**" وكانت قد فرغت لتوها من رسالتها الثانية فنهضت وهي تقول :

– هيا بنا يا "**جوزيفين**" .. لقد أمرت "**إيفانز**" بإعداد السيارة الـ"**فورد**" السوداء.. واجتزنا البهو ، وكانت الحقائب لا تزال في مكانها ، فوقفت "**أديث**" بالباب، ونظرت إلى السماء وقالت :

– إن الجو صحو . .والنسيم بارد ولكنه منعش .. ثم تحولت إلى "**صوفيا**" وقبلتها وقالت :

– إلى اللقاء يا عزيزتي .. لا تجهدي نفسك فهناك أشياء لا مفر منها ويجب مواجهتها ..

كانت السيارة تنتظر بالباب ، فاحتلت "**أديث**" مكانها أمام عجلة القيادة.. وجلست "**جوزيفين**" بجوارها ولوحت لنا "**أديث**" و"**جوزيفين**" بأيديهما مودعتين.. وتحركت السيارة . قلت أحدث "**صوفيا**" :

– لقد أحسنت "**أديث**" بإبعاد "**جوزيفين**" عن البيت .. ولكني مازلت مقتنعا بضرورة إرغام هذه الطفلة على الإفضاء بكل ما تفعله وتعرفه

– من المحتمل أنها لا تعرف شيئا على الإطلاق . إنها مغرورة ، وتحب أن تضفي على نفسها شيئا من الأهمية .

– هل عرفتم نوع المادة السامة التي وضعت في قدح الكاكاو ؟

– المعتقد أنها مادة "الديجالتين" ، التي تتناولها "**أديث**" كعلاج لقلبها .. كانت بغرفتها زجاجة مليئة بالأقراص وقد وجدت فارغة ..

– كان يجب عليها أن تضعها في مكان مغلق ..

– ذلك ما فعلته .. ولكن لم يكن من العسير العثور على المفتاح ..

- 23 -

غابت الشمس وراء الأفق وهبت نسمة باردة ، فارتعدت "**صوفيا**" وقالت :

– مضت أربع ساعات ولم تغد "**أديث**" و"**جوزيفين**" .. هلم بنا ندخل البيت..

وكنا وقتئذ في الحديقة ، فتأبطت ساعدها وعدت معها إلى البيت ، حيث تناولنا الشاي وجلسنا ننتظر .. ومرت ساعة أخرى .. وبدأ القلق يفري أعصابنا .. وكان "**تافرنر**" لا يزال بالبيت ، فحدثته عما يساورنا من قلق على "**أديث**" و"**جوزيفين**" .. فأجرى بعض الاتصالات التليفونية وأصدر بعض التعليمات .. وقال لي إنه سيخطرني حينما يتلقى نبأ عنهما .. وعدت إلى قاعة الاستقبال، ووجدت "**صوفيا**" في حالة يرثى لها من القلق..

قالت حينما أبصرتني :

– لابد أنه قد حدث لهما حادث يا "**تشارلس**" .. أنا واثقة من ذلك،

فضحك "**أوستاش**" وقال :

– لماذا القلق ؟ .. لا شك أنهما ذهبتا إلى السينما .. وخرج وهو لا يزال يضحك..

✵✵✵✵✵

وحوالي الساعة السادسة ، جاءنا "**تافرنر**" ووجهه ينم عن النبإ الذي يحمله... ونظرت إليه "**صوفيا**" .. وحبست أنفاسها .. قال :

– يؤسفني أن أحمل إليكم أنباء سيئة .. لقد أذعت نداء بالراديو .. فأبلغنا أحد شرطة المرور أنه رأى السيارة تنحرف عن الطريق العام بالقرب من "**فلاكسبور**" وتسير نحو الغابة ..

– في الطريق إلى المحاجر ؟

– نعم .. وصمت قليلا ثم قال :

– قد وجدت السيارة مقلوبة في أحد المحاجر .. وبداخلها جثتان .. وقد يخفف من وقع الكارثة أن تعلموا أنهما توفيتا فور انقلاب السيارة ..

وعندئذ سمعنا صرخة !! .. كانت "**ماجدا**" بالباب وقد سمعت النبأ .. صرخت مرة أخرى :

– "**جوزيفين**" .. ابنتي العزيزة ! فأسرعت "**صوفيا**" إلى أمها واحتضنتها .. وضمتها إلى صدرها .. وتذكرت في هذه اللحظة أمرا ..

تذكرت أن "**أديث دي هافيلاند**" كتبت رسالتين .. وأن الرسالتين كانتا في يدها عندما اجتازت البهو .. ولكني لم أرهما عندما ركبت السيارة .. أسرعت إلى البهو .. ولم تمض لحظات حتى عثرت على الرسالتين خلف آنية للأزهار فوق المدفأة .. كانت إحدى الرسالتين تحمل اسم المفتش "**تافرنر**" .. وكان "تافرنر" قد تبعني فأعطيته الرسالة ففضها وقرأ بصوت مسموع :

"أعتقد أن هذه الرسالة سوف تقرأ بعد موتي .. لست أريد الخوض في التفصيلات .. ولكني أعلن بإيجاز مسؤوليتي عن موت "**أرستيد ليونيدس**" و"**جانيت رو**" المشهورة بـ "**ناني**" وأقرر أن "**بريندا ليونيدس**"، و"**لورانس براون**" بريئان مما نسب إليهما .. وسوف يؤكد الدكتور "**مايكل شافاس**" الطبيب بشارع "**هارلي**" أنني مصابة بسرطان الحلق وأن موتي محقق بعد بضعة أشهر ، ولذلك قررت ألا أرحل بالطريقة التي اخترتها دون أن أوفر على شخصين بريئين محنة محاكمتهما لجريمة لم يرتكباها .."

"**أديث دي هافيلاند**"

✲✲✲✲✲

سمعت "**صوفيا**" نص الرسالة كما سمعته وهتفت وهي لا تكاد تصدق أذنيها :

– الخالة "**أديث**" .. ثم نطقت على الفور بالسؤال الذي كان يتحير على شفتي إذ قالت :

– و"**جوزيفين**" .. ما ذنبها ؟ ولماذا اصطحبتها ؟ فقلت :

– نعم .. لماذا قتلتها ؟ .. لماذا ؟ ولكني كنت أعرف الجواب .. كانت الرسالة الثانية لا تزال في يدي .. وكانت أضخم من الأولى .. وقد عرفت محتواها قبل أن أفضها ..

عرفت أنها تحتوي على الدفتر الصغير الأسود .. دفتر "**جوزيفين**" .. وأطلت "**صوفيا**" من فوق كتفي لتقرأ معي السطر الأول في الدفتر :

"اليوم قتلت جدي" ..

- 24 -

لقد تساءلت فيما بعد كيف لم أدرك هذه الحقيقة الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، حقيقة أن "**جوزيفين**" هي الوحيدة التي لا يمكن أن يتخطاها الاتهام.. كان غرورها ، والأهمية التي تضفيها على نفسها ، وحرصها على إبراز ذكائها.. واللذة التي تشعر بها عند المقارنة بين مقدرتها وعجز رجال الشرطة.. كل هذه كانت أصابع اتهام تشير إليها ..

ولأنها طفلة ، لم يخطر ببالي قط أنها تستطيع ارتكاب جريمة قتل ، ونسيت أن "**أرستيد ليونيدس**" قد أرشدها بنفسه إلى الطريقة .. وأنه كان بوسعها أن تعمل بإرشاده ، مع احتياط ضئيل هو ألا تترك بصمات أصابعها.. وذلك أمر لا بد أنها عرفته من إدمانها قراءة القصص البوليسية..

وذلك الفخ الذي نصب لها في غرفة المهملات .. كان يجب أن أدرك أنها التي نصبته لنفسها .. فإنها على الرغم من ذكائها قد تركت آثارها في صورة قطع من الوحل الجاف على المقعد الخشبي .. وقد كانت هي الوحيدة بين أهل البيت التي لا تستطيع بلوغ الحافة العليا للباب إلا إذا وقفت على الكرسي .. يضاف إلى ذلك أن الفخ كان على جانب كبير من السذاجة وضحالة التفكير؛ إذ كان من الممكن أن يهشم التمثال الرخامي رأسها ويقتلها .. ولكن مما لا شك فيه أنها كانت تنظر إلى نفسها كبطلة ، وبطلات القصص فيما تعلم لا يمتن ..

وقد استطاعت ببراعة أن تلفت نظري إلى الخزان ، ونجحت في تشتيت تفكيرنا وإبعاد الشبهات عن نفسها بتلك الفوضى التي أحدثتها في غرفتها.. وعندما عادت من المستشفى وعلمت باعتقال "**بريندا**" و"**لورانس**" ، أحست بخيبة الأمل ، وشعرت بأن المغامرة بلغت ذروتها وبأن الأضواء

ستنحسر عنها ، فسرقت ذلك العقار من غرفة "**أديث**" ووضعته في الكمية التي لم تشربها من (الكاكاو) وتركت القدح في مكان واضح على المائدة .. فهل كانت تعلم أن "**ناني**" ستشرب بقية (الكاكاو) ؟.. ربما .. لقد قالت لي بنفسها إنها تمقت "**ناني**"؛ لأنها كثيرا ما انتهرتها وعنّفتها .. أم ترى أن "**ناني**" بما لها من خبرة في تربية الأطفال ، قد فطنت إلى الحقيقة، وأدركت أن "**جوزيفين**" وراء الجريمة فسارعت هذه إلى الفتك بها ؟ ذلك ممكن أيضا..

لقد كانت "**جوزيفين**" بإجماع الآراء مخلوقة غير عادية ، فهي ذكية العقل ولكنها ملتوية التفكير .. لابد من أن يكون "**أرستيد ليونيدس**" قد أدرك هذه الحقيقة منذ وقت طويل فأشفق على الطفلة نفسها من تبعات انحرافها العقلي ، وقرر تثقيفها في البيت وعدم إرسالها إلى المدرسة ..

و"**ماجدا**" .. هل كانت تعرف الحقيقة ؟

إن إسراعها في إرسال ابنتها إلى "**سويسرا**" يدعو إلى هذا التساؤل ..

ولكنني لا أظن أنها كانت تعرف .. ولعل غريزة الأمومة وحدها هي التي دفعتها إلى التفكير في إقصاء ابنتها خوفا من المجهول ..

و"**أديث دي هافيلاند**" ؟

وتناولت رسالة "**أديث**" التي أرفقتها بالدفتر الصغير الأسود وقرأت فيها ما يلي:

"عزيزي "**تشارلس**" ..

هذه الرسالة لك وحدك ، ولـ"**صوفيا**" إذا استصوبت أنت ذلك ، فلقد رأيت من الضروري أن أطلع إنسانا ما على الحقيقة ..

إنني وجدت الدفتر المرفق في حظيرة مهجورة من حظائر الكلاب خلف البيت.. وما قرأته في الدفتر قد أكد الظنون التي خامرتني .. فهل أنا على صواب فيما قررت الإقدام عليه ؟.. لا أعلم .. ولكن حياتي قد انتهت تقريباً.. ولست أريد

للطفلة أن تكابد العذاب الذي ينتظرها حتما عندما تسأل عما قدمت يداها. إن الطبيعة كثيرا ما تدفع إلى الحياة صغارا يختلفون عن غيرهم .. فإذا كنت قد أخطأت .. فإنني أرجو الله أن يغفر لي؛ لأن ما سأفعله إنما بدافع الحب .. بارك الله فيكما .."

"أديث دي هافيلاند"

قرأت هذه الرسالة ، ولم أتردد إلا قليلا قبل أن أدفع بها إلى "صوفيا" .. ولما فرغت "صوفيا" من قراءتها ، شرعنا في تلاوة ما سجلته الطفلة في دفترها من اعترافات تثير الشفقة بسذاجتها وإخلاصها :

"اليوم قتلت جدي .. إنه لا يريدني أن أتعلم رقصة الباليه .. فقررت أن أقتله لكي أنتقل مع أمي إلى "لندن" .. وأصبح راقصة باليه عظيمة .."

وكانت الفقرة التالية لا تقل غرابة عن سابقتها :

"لا أريد السفر إلى "سويسرا" .. فإذا أصرت أمي على ذلك فسأقتلها ..ليس لدي (سم) ولكني سأجد وسيلة ما .."

".. إن "أوستاش" يغيظني .. فهو يقول إنني فتاة ، وإن الفتيات لا يصلحن لأعمال الشرطة .. ولكنه لا بد أن يعدل عن رأيه إذا علم أنني التي قتلت جدي.. أنا أحب "تشارلس" .. ولكنه غبي" .

"... لست أعلم بعد من أتهم بارتكاب الجريمة .. ربما أتهم "بريندا" و"لورانس" .. إنني أمقت "بريندا"، لأنها تقول إنني مخلوقة شاذة .. ولكني أحب "لورانس" .. إنه روى لي قصة "شارلوت كورداي" التي قتلت أحد زعماء الثورة الفرنسية وهو يستحم .." وجاء في الصفحة الأخيرة :

"إنني أكره "ناني" فهي تزعم أنني طفلة مغرورة تريد أن تجعل لنفسها أهمية.. وهي التي تحض أمي على إرسالي إلى "سويسرا" ..

سأقتلها .. وأظن أن دواء الخالة "**أديث**" يكفي لذلك .. ومتى حدثت جريمة ثانية .. فإن رجال البوليس يعودون إلى البيت ، ويصبح الموقف مثيرا..

... ماتت "**ناني**" ... ولا أعلم أين سأخفي زجاجة الدواء، قد أخفيها في غرفة العمة "**كليمنسي**" .. أو في غرفة "**أوستاش**" ..

وحينما أشعر بدنو أجلي .. بعد أن أكون قد بلغت من السن عتيا ، سأرسل هذا الدفتر إلى مدير الشرطة لكي يعلم أنني كنت أعجوبة العصر في فن الجريمة.."

وطويت الدفتر فهتفت "**صوفيا**" وهي تبكي :

– هذا مخيف يا "**تشارلس**" .. كانت المسكينة وحشا في صورة إنسان .. ولكني لا أشعر نحوها بغير الشفقة والرثاء .. وكان ذلك هو شعوري أيضا .. وسألتني "**صوفيا**" :

– ما المصير الذي كان ينتظرها لو أنها عاشت ؟

– كانوا سيضعونها في معهد للشواذ، ومتى كبرت ألقوا بها في السجن ..

– إذن فقد أحسنت "**أديث**" صنعا ..

– نعم .. إنها أقدمت على أنبل تضحية يمكن أن تقدم عليها امرأة من أجل أسرتها ...

تمت بعون الله

أجاثا كريستي

{1976 - 1890}

–الكاتبة التي ترجمت رواياتها إلى **103** لغات.

– بيع من كتبها أكثر من **900** مليون نسخة باللغة الإنجليزية وحدها.

– كاتبة روايات بوليسية، ولدت في إنجلترا تتميز عن جميع الروائيين البوليسيين، مما نصَّبها ملكة عليهم جميعًا. تميَّزت أيضًا بأنّ أشخاص رواياتها أشخاص عاديون، ولكنّهم تعرضوا في الرواية لظروف أزالت القناع الحضاري عن الوحوش القابعة في أعماق كل إنسان. كذلك لم تلجأ الكاتبة العظيمة إلى عنصر الجنس في رواياتها، على عكس ما اتبعه الآخرون. ولم تهدف إلى الإثارة، ولا تلجأ إليها. ورواياتها تضمَّنت أيضًا أهدافًا إنسانية فحواها أنّ (الجريمة لا تفيد) وأنّ الخير هو المنتصر في النهاية.

التضحية الكبرى
Crooked House

لقد كانتْ عائلةُ «ليونيدس» بأجْيالها الثلاثة تعيشُ مُطمئنَّةً وسعيدةً في مَنزل إنجليزي ذي سَطح مُثلث الشَّكل في إحدى ضواحي «لندن» حتى مَقتل «أريستد ليونيدس» والذي تحومُ شبهات مقتله حوْل أحد أفراد عائلته...

إن هذه الروَاية من أفْضل الروايات المحبَّبة إليَّ... فَهي ممتعَة للغاية عندَ كتابتها، ولذلك فإنني أؤمنُ من داخلي أنَّها منْ أفضل رواياتي.

أجاثا كريستي

ثمن الكتاب

لبنان	5000 ل.ل.	قطر	10 ريالات
سوريا	100 ل.س.	عُمان	1.5 ريال
الاردن	1.5 دينار	مصر	10 جنيهات
السعودية	10 ريالات	المغرب	30 درهما
الكويت	1 دينار	ليبيا	5 دنانير
الإمارات	10 دراهم	تونس	4 دنانير
البحرين	1.5 دينار	اليمن	400 ريال

ISBN 9953383154
9 789953 383156